

ظاهرة العودة إلى الإيمان الديني في العصر الحديث (اليهودية، المسيحية، الإسلام)

د. عرفات كرم ستوني

2011

تمهيد

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد.

إن الحياة العلمية في حركة ديناميكية مستمرة لا يوقفها شيء، فهي أشبه بالسيل الجارف، فمن مستفيد من حركتها وتطورها، ومن متضرر، وهي حركة لا تعباً بحواليها، فهي ماضية في طريقها، ولقد حاولت المسيحية (الكاثوليكية *Catholic* لأنها كانت الكنيسة الأم آنذاك) أن تقف سداً منيعاً في وجهها، لكنها لم تستطع، بل لقد زادت من حركتها ونشاطها، وغذت تقدمها وتطورها، ففي بداية الأمر اتهمت الكنيسة تلك الحركة بالهرطقة *Heretic* وعلى أشياعها بالكفر والزندقة، وقامت بحرق

جميع الكتب التي تتحدث وتتناول أي شيء له صلة بتلك الحركة، بل كانت الكنيسة تتهم كل من يخالفها وينتقدها ويعاندها بالهرطقة، فقد كان الكاهن جون هس (1445م) *John Huss* ينتقد رجال الدين، فاتهم بالهرطقة، وتم إحراقه حيا، ولقد أثار الكاردينال بيران – المنفي بعد أربع عشرة سنة من الإقامة الجبرية تحت المراقبة من قبل السلطات الشيوعية- في مجمع الفاتيكان الثاني بين (1962م -1965م) هذه المسألة كجريمة ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية، حيث قال: يبدو أن الكنيسة الكاثوليكية في بلادي تشيكوسلوفاكيا السابقة تكفر عن خطايا وأثام ارتكبت باسمها ضد حرية التدين في أزمنة غابرة، والكاهن (هس) الذي أحرق في القرن الخامس عشر¹.

ولكن بالرغم من ذلك فإن الحركة العلمية تطورت أكثر، وانكمش دور المسيحية في زوايا ضحلة ضيقة، والأدهى من ذلك انشقاقها إلى مذاهب وكنائس مختلفة، فالكنيسة هي التي سبب الصراع، وهي التي أحدثت هذه الفوضى والضجة، وهي التي صنعت أجيالا تعادي كل ما صلة بالدين أي دين بغض الطرف عن هويته وماهيته.

ولقد انتقلت هذه العدوى الخطيرة إلى اليهودية والإسلام، حتى أضحى الحديث عن الدين جريمة وتخلفا، واستمرت هذه المعاداة للدين حقبة كافية حتى انهارت جميعها من غير رجعة، وحلت محلها العودة إلى الإيمان الديني، وهي ظاهرة ملحوظة في الأديان السماوية الإبراهيمية (اليهودية، المسيحية والإسلام)، وقد تحدث عنها الباحثون في مجالات الحقل الاجتماعي والنفسي والديني، وهذه الظاهرة رد فعل لإفرازات الحداثة الغربية، والتي أفرزت تحديات مصيرية خطيرة كادت تقضي على كل ما له صلة بالدين.

وينضاف إليه، أن هذه الظاهرة في الوقت نفسه أخذت اتجاهين، اتجاه نحو الاعتدال والوسطية، وهو التدين المعقول في حدود القواعد المعروفة، فلم يلجأ إلى الغلو والتطرف، وأكثر العائدين إلى الإيمان الديني لم يسلكوا هذا المنحنى، بل وقعوا ضحية الاتجاه الآخر، وهو التطرف والتشدد والغلو، إلى أن وقعوا في براثن الفكر التكفيري.

وسنحاول بقدر الإمكان إلقاء بعض الأضواء على إشكالية الصراع بين النزعة العلمية والدين، أو نقول بين أهم إفرازات الحداثة الغربية، كتلك الأيدولوجيات المادية والإلحادية والوضعية، والتي تعد بحق كبرى تحديات الحداثة الغربية، وبين ظاهرة العودة إلى الإيمان الديني، وهي عودة اتخذت أشكالا وأنماطا وأطرا متباينة، سنعرف تفاصيلها في الصفحات القادمة.

بين الدين والنزعة العلمية

في منتصف القرن السادس عشر إلى بدايات القرن السابع عشر ظهرت النزعة العلمية *Scientism*، فقد أحدثت نظرية العالم الفلكي الهولندي كوبر نيكوس

¹ جيل كييل: يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث: ترجمة نصير مروة (د.م، دار قرطبة، ط2 1992م) ص100.

Copernicus (ت1543م) زوبعة في الساحة الفكرية ضد الكنيسة الكاثوليكية² *Catholic Church*، وذلك من خلال كتاب صنفه بعنوان (حركة الأجرام السماوية)، حيث مؤدى نظريته، أن الأرض ليست مركز الكون، وأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس على نقيض قول أرسطو (322 ق.م) *Aristotle*، وهذا ظاهراً يناقض مبادئ الكنيسة الثابتة، لذا أدرج كتابه ضمن قائمة الكتب المحرمة تداولها، تقول كارين أرمسترونغ: "كانت نظريته القائلة بكون مركزه الشمس صدمة مدمرة للمفهوم الأسطوري القديم... إن الأرض والكواكب الأخرى كانت في حالة حركة سريعة حول الشمس بدل من أن تكون الأرض مركز الكون... لقد بقيت نظرية كوبر نيكوس ناقصة، لكن الفيزيائي الألماني كيبلر (1630م) استطاع أن يقدم الدليل الرياضي دعماً لها، بينما اختبر الفلكي غاليلي (1642م) *Galileo Galilei* فرضية كوبر نيكوس امبريقياً عن طريق مراقبة الكواكب بمنظاره الفلكي، فأكمل النظرية بنفسه، عندما نشر غاليلي اكتشافه عام (1612م) خلق إثارة، فأخذ الناس في أرجاء أوروبا يتصفحون السماء بأنفسهم عبر مناظرهم، لقد أسكتت محاكم التفتيش غاليلي، وأجبرته على التراجع عن أقواله"³.

ثم جاء جردانو برونو *Giordano Bruno* فدافع عن النظرية السابقة، وأضاف أن ثمة وحدة وجود مساوية بالطبيعة، لكنه أحرق حياً على الخازوق سنة (1600م) بعد سجنه ست سنوات، حيث لم يتراجع الرجل عن رأيه، بل أصر عليه⁴. أما غاليلي *Galilei Galileo* (1642م) فإنه لم يكن جريئاً كسلفه، فقال بها في بداية الأمر، ثم تراجع عن ذلك خوفاً من سطوة الكنيسة، وقد قضى الرجل مع ذلك ثماني سنوات في أواخر حياته تحت الإقامة الجبرية، ثم جاء إسحاق نيوتن *Isaac Newton* (ت1727م) بنظرية الجاذبية، وفسر الظواهر الطبيعية تفسيراً يخالف التفسير الكنسي الكاثوليكي⁵.

لا ريب أن هذا الصراع يقتضي من الطرفين مراجعة أدبيات تلك التعاليم، وقراءتها بعين نقدية فاحصة، ولكن الطرف العلمي ومعه الإلحادي كان أسبق، حيث بدأ الطرف المذكور بدراسة النصوص الدينية للكتاب المقدس، بينما اقتصر الجانب

² والغريب أن كوبر نيكوس عندما طرح فرضيته لأول مرة في الفاتيكان وافق عليها البابا، وقد قال عن فرضيته: إن علمه كان أكثر إلهية مما هو بشري. انظر: كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام ترجمة: محمد الجورا (دمشق، دار الكلمة، ط1، 2005م) ص309.

³ كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية ص84. وقد تحدث برتراند رسل عن محاكم التفتيش وتأثيرها السلبي على إيطاليا بقوله: "غير أن محكمة التفتيش نجحت في استئصال البحث العلمي في إيطاليا لعدة قرون". انظر: برتراند رسل: حكمة الغرب: ترجمة زكريا فؤاد (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1403هـ، 1983م) 44/1.

⁴ ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة: ترجمة محمد شيا (بيروت، منشورات المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2005م) ص282. قارن مع برتراند رسل: حكمة الغرب: 20/2.

⁵ وحين حوكم (لا فوارزييه) مؤسس الكيمياء الحديثة أمام محكمة ثورية في عهد الإرهاب... وحين قيل للمحكمة أنه من أعظم العلماء، ردت بأن الجمهورية لا حاجة بها إلى العلماء، وهكذا قطعت رأسه بالمقصلة" انظر: برتراند رسل: حكمة الغرب 114-113/2.

الكنسي باقتفاء أسلوب الرفض والرد، واتهام المقابل بشتى التهم العقديّة، وتسميتهم بالهرطقة، ومن أعمال إرهابية كالقتل والحرق والحبس، وما إلى ذلك من الأساليب بحق العلماء أمثال جردانو وغاليلي وغيرهم خلق كثير.

وبالعودة إلى الطرف العلمي، هذا الطرف الذي بدأ بدراسة نصوص الكتاب المقدس، فظهرت مدرسة ألمانية معروفة في التاريخ تعرف بمدرسة النقد التاريخي للنصوص، ومن هؤلاء أتباع المدرسة الراديكالية المتأثرة بفلسفة هيغل الجدلية *Friedrich Hegel* (ت1831م)، ومن أبرزهم ديفيد شتراوس *David Strauss* الذي ألف رسالة حول حياة السيد المسيح *The Life of Jesus* حيث ناقش أن أغلب ما جاء في الأناجيل على لسان المسيح خرافات وأساطير، وبالأخص تلك الأجزاء التي لها صلة بعالم آخر غير عالمنا، وذهب برونو *Bruno Bauer* أبعد من هذا، حيث عدّ المسيح شخصية خرافية⁶، أي لا حقيقة لها. ولهذه المدرسة أقسام ومؤسسات في العصر الحديث، ترتد جذورها إلى القرن التاسع عشر، وأثارها لا تفتأ ثابوية وبقائية، وقد تركت آثارا جليلة في الفكرين اليهودي والإسلامي، لكن التأثير الأكبر كان على عقول الغربيين أنفسهم، ففي بلد مثل فرنسا كما يقول الباحث كرين: "ظلت السيادة معقودة فيها على السطح للكنيسة الكاثوليكية، كان بها مئات آلاف البروتستانتين، وعدد غير معروف من الطبيعيين أو الربوبيين والملحدين والشكاك، يعبرون جميعا في صراحة ووضوح عن حقيقة إيمانهم أو عدم إيمانهم دون أن يتعرضوا سوى قلة نادرة منهم لأي مخاطر حقيقية لمثل ما كان يتعرض له أقرانهم من عقوبات خلال العصر الوسيط"⁷.

وبمرور الزمن تحولت النظريات العلمية بمختلف اتجاهاتها إلى أيديولوجيات معروفة لها أشياعها وأتباعها، تقف بصرامة و عنف أمام كل ما له صلة بالدين، ولهذا نجد الاتهامات المعروفة للدين وأهله، وتصوير الدين مرحلة من مراحل التطور الفكري الإنساني من الناحية التاريخية، وهي مرحلة جامدة خامدة هامة لا يمكن لأتباعه تجاوزها إلى مرحلة أخرى أكثر تطورا وتقدما، فهي في مخيلتهم مرحلة متخلفة يصبح الإنسان الحر فيها عبدا تكبله أخلاقيات مصطنعة صنعها لهم الأقوياء، ولهذا كان يرى نيتشه (ت1900م) *Friedrich Nietzsche* العقائد التقليدية مجرد أدوات تستعين بها أخلاق العبيد، وفي رأيه أن الإنسان الحر ينبغي أن يعترف بأن الرب قد مات... ثم ضرب مثلا بأن أوضح نموذج لأخلاق العبيد هو المسيحية"⁸.

ولا مجمعة أن المسيحية تتحمل مسؤولية هذا الصراع العنيف، لكونها تعاملت مع أشياع تلك النظريات العلمية بقسوة و عنف وطيش مما أحدث رد فعل عنيف تجاه كل ما له صلة بالدين وأهله، مع أن الإسلام على سبيل المثال لم يتخذ الموقف نفسه تجاه النظريات العلمية، وقد خصص الباحثون المسلمون دراسات واسعة ومؤلفات قيمة تتناول هذه المسائل بتفصيل، وهو علم معروف يدعى بالإعجاز العلمي في

⁶ Samuel Enoch, *Stumph: Philosophy, History and Problems* (New York, Mc Graw-Hill, 1989).P.403.

⁷ برينتون كرين: تشكيل العقل الحديث: ترجمة شوقي جلال (الكويت، عالم المعرفة، 1405هـ، 1984م) ص221-222.

⁸ برتراند رسل: حكمة الغرب 2/150.

القرآن والسنة، ولكن جل أصحاب تلك النظريات ينظرون إلى الدين أي دين في كونه مجرد تراكمات ثقافية تطورت بمراحل مختلفة وأطوار متباينة، حتى وصل إلى ما وصل إليه.

والحقيقة أن ظهور وبروز هذه الأيدولوجيات والمذاهب والحركات كانت أخطر التحديات التي أفرزتها الحداثة الغربية، لأنها صبت جام غضبها على الدين وأهله، فهي تحديات عادت المسيحية وعاندتها، لكنها انتقلت كعدوى خطيرة إلى اليهودية، ومن ثم إلى الإسلام، لأن الهدف الأساس والغاية الرئيسية هي معاداة الدين الذي كان في سالف الدهر عائقا أمام تطور العلم وتقدمه، بل عدوا الدين أفيون الشعوب كما قال الماركسيون، وهذا يشمل كل دين بغض الطرف عن نوعه وهويته حسب تصورهم.

وستناول في السطور القادمة أهم هذه التحديات التي أفرزتها الحداثة الغربية، وفي الوقت نفسه سنتناول ظاهرة العودة إلى الإيمان الديني في الأديان الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام) وهي الأديان الإبراهيمية *Abrahamic Faith*.

أهم تحديات الحداثة الغربية

أولاً) الوضعية الاجتماعية *Social Positivism*

الوضعية بمختلف اتجاهاتها كانت لها رؤية أحادية تجاه الدين بصورة عامة، حيث تفسر الدين بأنه تراكمات ثقافية متنوعة مرت بمراحل متباينة وأطوار متعددة، وصلت إلى نهاية في مخيلة أشياعها، وليس ثمة مرحلة أخرى بعدها.

يعد هنري كونت *Henry Comte* أول من استعمل هذا المصطلح ليشير إلى المنهجية العلمية ومدياتها على الفلسفة، ثم تبنى هذا المصطلح من بعده أوجست كونت (1857م) *Auguste Comte* الفيلسوف الفرنسي الشهير⁹.

من خصائص هذه الفلسفة أن العلم هو المعرفة الحقة الصحيحة، وهي تعارض الميتافيزيقيا مطلقا، وكل طريقة أو أسلوب لا يواكب ويوافق المنهجية العلمية *Scientific Method*. وترجع مصادر الوضعية إلى المبادئ الفلسفية التي وضعها الفيلسوف البريطاني الحسي *English Empiricist* فرنسيس بيكون *Francis Bacon*، وإلى فلاسفة التنوير *The Philosophers of Enlightenment*.

إن المناخ الثقافي في القرن الثامن عشر للثورة الصناعية *Industrial Revolution* والتفائل الكبير بالتكنولوجيا الناجحة أعطت للوضعية تقدما ملحوظا، ولذلك جعلت الوضعية هذا المناخ والجو في طابع فلسفي مبرمج، وقد كان بحق مشروعا عالميا للحياة الإنسانية، ويتقدم التكنولوجيا حلت العلمية محل الوضعية، فكانت لهذه الفلسفة تفاسير لمباحث الأخلاق والسياسة والدين، ففي هذه الفلسفة فسر

⁹ ولد أوجست كونت *Auguste Comte* في فرنسا سنة (1798م) في مونتبلير *Montpellier* كان سكرتيرا لـ (سان سيمون) السوسيولوجي (1818م)، وقد تأثر به تأثرا بليغا، من كتبه دراسات حول الفلسفة الوضعية باللغة الفرنسية *Course de Philosophie Positive*، كان تأثيره كبيرا في أوروبا، ثم في أمريكا حتى بدايات القرن العشرين، توفي سنة (1857م). انظر: *The Hutchinson Dictionary of Ideas (Oxford, Helicon, 1994) P. 112, 113.*

الدين بأنه يمكن إخضاعه لضوابط علمية بله الأخلاق والسياسة، وهذا بلا ريب إحلال للوضعية محل الدين التقليدي اللاهوتي¹⁰.

أما أوجست كونت (1857م) فإنه يمثل الوضعية الاجتماعية التقليدية، ومن بعده جون ستيورات مل (1873م) *John Stuart Mill*، ظهرت الوضعية الاجتماعية في فرنسا بيد سنتا سيمون *Simon*، وفي إنجلترا ظهرت من خلال جهود فلاسفة النفعية *Utilitarianism* أمثال جيرمي بنتام *Jeremy Bentham* وجيمس ميل *James Mill*، يذهب سيمون إلى أن البشرية تعيش في حقبة تنتقد الحقب السالفة، وهي دخلت حقبة تطور العلم، فبدخولها هدمت هذه الحقبة المراحل السابقة البدائية في العصور الوسطى (القرنوسطية)، وبالأخص مبادئ اللاهوتيات والميتافيزيقيا، وبعبارة أدق أبعدت هذه الحقبة المؤسسات الاجتماعية القرنوسطية، وعلى هذا الأساس لا بد من التعويل على نظام جديد لمباحث الأخلاق والسياسة والدين، وفي كتابه (المسيحية الجديدة) *The New Christianity* (1825م) بين سيمون أن هذه الحقبة الجديدة ما هي إلا عودة إلى المسيحية البدائية *Primitive Christianity*.

ثم جاء أوجست كونت، وقد كانت فكرة سيمون بمثابة إلهام جديد له، حيث جاء بقانون المراحل الثلاث *The Law of Three Stages* ويعني هذا القانون أن التاريخ العام للإدراك البشري تطور ومر بمراحل ثلاث:

(1) الأسطورية *Methodological* أو الخيالية غير الواقعية

Factionous وسواها في الدلالة بالدين.

(2) ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) *Metaphysical*.

(3) الوضعية *Positivism*¹¹.

والمرحلة الأولى التي ذكرها أوجست كونت هي أشبه بمرحلة الطفولة، حيث شبه هذه المراحل السابقة بالتطور البيولوجي للإنسان، مرحلة الطفولة ثم مرحلة شرح الشباب، وأخيرا مرحلة الاكتمال العقلي لإدراك الوجود الخارجي، ففي المرحلة الأولى فسر الإنسان الظواهر الطبيعية بقوى غيبية خيالية، وذلك عن طريق تشخيص الآلهة كالأصنام والطواطم، وفي المرحلة الثانية فسر لها الإنسان بعد تجاوز المرحلة الأولى بقوى مجردة ليست مشخصة مثل المثل الأفلاطونية، والمحرك الذي لا يتحرك عند أرسطو *The Prime Mover*، وهنا بدأت عملية التطور ترتقي، ثم تأتي المرحلة الأخيرة في نهاية المطاف بعد اكتمال العقل الحر ليفسر الظواهر تفسيراً مادياً حسيّاً تجريبياً، وتكون نهاية المراحل في تطور الفكر الإنساني للوصول إلى الوضعية العلمية، وقد رد عليه أحد أعمدة الفلسفة الظاهرانية *Phenomenology* ماكس شلر الألماني (1928م) *Max Scheler* بقوله: "إن تجربة الإنسان الدينية أصيلة وأولوية، ولم تنتج عن تجارب غيرها، لأن الإلهي مفهوم ينتمي إلى مجموعة

¹⁰ *The Encyclopedia of Philosophy* (London, Routledge, 1988) Volume 5-7.P 414.

¹¹ *Ibid*.P 416.

المعطيات الأكثر بدائية من الوعي الإنساني"¹². بل إن فولتير (1778م) *Voltaire* يذهب أبعد من ذلك بقوله: "إنه لو لم يكن يوجد إله، لوجب علينا أن نبتدعه"¹³.

أما الوضعية المنطقية *Logical Positivism* أو الوضعية الجديدة *New Positivism* فهي وليدة الوضعية الاجتماعية التقليدية ظهرت في القرن العشرين الميلادي، تترد أصولها إلى أوجست كونت وجون استيوارت مل، ومن قبلهما إلى المدرسة التجريبية الإنجليزية في القرن الثامن عشر الميلادي، فهي قائمة على مبدأ التحقق من صدق الدعاوى *Verification* أي أن كل القضايا كالدين والرياضات وما إلى ذلك لا معنى لها إذا لم تتحقق من خلال التجربة، وهي مجموعة من المبادئ أخذت بها حلقة (فيينا) *Vienna Circle* سنة (1920م، 1930م)، وقد تأثرت بأفكار فردريك فريجه (1925م) *Friedrich Frege* وبرتراند رسل (1970م) *Bertrand Russell* وفتجمشتين (1951م) *Ludwig Wittgenstein*¹⁴.

الوضعية التطورية *Evolutionary Positivism*

الوضعية التطورية تستنتج من خلال ملاحظة علم الطبيعة وعلم الحياة، وهي تشارك الوضعية الاجتماعية في فكرة التقدم، ولكنها تخالفها في عملية الاستنتاج، أي أنها لا تستنتج ذلك من خلال التاريخ والمجتمع، ومؤسسها تشارلس لايل *Charles Lyell* وقد بين ذلك في كتابه مبادئ علم طبقات الأرض *The Principles of Geology* وهذه النظرية تبلورت بظهور كتاب أصل الأنواع لدارون *The Origin of Species* (1859م) حيث صاغها في غاية الدقة، ومن الذين يمثلون هذه النظرية هربرت سبنسر *Herbert Spencer*.

ثانياً الدارونية *Darwinism*

كانت الدارونية من أعظم التحديات التي واجهها الفكر الديني العام، ويتبين من خلال تلك الآثار التي خلفتها الأيدولوجية، حيث غدت إلهاما جديدا لكثير من الأيدولوجيات التي ظهرت في الساحة الفكرية المختلفة¹⁵.

مصادر نظرية دارون

¹² أ.م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا: ترجمة عزت قرني (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1483هـ، 1992م) ص 249.
¹³ برتراند رسل: حكمة الغرب 112/2.

¹⁴ *The Encyclopedia of Philosophy* P.316.

¹⁵ الدارونية نسبة إلى تشارلس دارون البريطاني العالم البيولوجي (1809م) *Charles Darwin* درس في جامعات أدنبرج وكمبرج، ولم يكن له ميل إلى الدراسات الطبية، مات سنة (1882م) ودفن قريبا من قبر إسحاق نيوتن *Isaac Newton*، كان من أعظم علماء البيولوجيا في القرن التاسع عشر صاحب كتاب أصل الأنواع (1859م) *Origin of Species by means of Natural Selection or The Presentation of Favored Race in the Struggle for Life* وكتاب أصل الإنسان (1871م) *The Decent of Man*.

ثمة مصادر عديدة استقى منها دارون نظريته وفكره، وهي مجتمعة كونت له هذه النظرية التي ملئت الساحة الفكرية ردحا من الزمن. ويمكن التطرق إليها في صورة نقاط متعددة.

(1) تأثير جده الفيلسوف الطبيعي أراموس *Erasmus Darwin* حيث هو أول من ابتدع نظرية التطور العضوي هذه سنة (1790م) وكان دارون آنذاك صغيراً، ولذلك كان يقول دارون: "كان جدي يناقش هذه النظرية كثيراً وكنت أسمعها"¹⁶. وهذه الظاهرة لها أمثلة كثيرة لا تحصى، أعني أن فكرة ما اخترعها شخص، ثم يأتي آخر فيبلورها ويجعلها في إطار علمي أو فلسفي، وهنا يمكن القول بأن دارون بلور فكرة جده، وخاصة عندما ترجحت لديه بعد تجاربه الميدانية المباشرة والمستمرة في عالم الطبيعة.

(2) أما الشق الثاني من النظرية، وهي البقاء للأصلح *The Survival Of The Fittest*، فيقول برتراند رسل: "هي بمعنى ما امتداد لفكرة المنافسة الحرة كما قال بها أنصار بنثام"¹⁷، أما أصل هذه النظرية العام فقد أرجعه إلى الفيلسوف الكلاسيكي اليوناني أناكسيمندر"¹⁸.

(3) ألف توماس مالتوس *Thomas Robert Maltus* كتاباً بعنوان مقال حول (مبدأ التعداد السكاني)، وقد قرأ دارون هذا الكتاب، وتأثر به حتى قال جيمس بيرك: "وكانت الجملة التي وجد فيها دارون الحل هي: نحن نستطيع أن نقول بثقة، إننا لو لم نتحكم في تنظيم عدد السكان، فسوف يتضاعفون كل خمسة وعشرين عاماً أي يزيدون بمعدل متوالية هندسية، وعلى هدي هذه الجملة كتب دارون يقول: "من المحتم أن يفضي ارتفاع معدل زيادة الكائنات العضوية إلى صراع بينها من أجل البقاء"¹⁹.

(4) شارلز ليل *Charles Lyell*

حيث يقول شارلز: "إن حق الأقوى هو الذي يسود فعلياً في الصراع الكوني من أجل البقاء"²⁰. وهكذا تحولت النظرية من دائرة بيولوجية ضيقة ضحلة إلى دوائر مختلفة في مناحي الحياة، ولو أنها بقيت في عالم البيولوجيا، ولم تخرج منه لما كان أي ضير في تلك المناحي الحياتية.

إن التفسير الأدق لنظريته يبينه لنا جيمس حيث يقول: "وقد بين دارون أن الصراع من أجل البقاء في عالمي النباتات والحيوانات ينتج عنه تغيير تطوري

¹⁶ *The World Book Encyclopedia* (London, 1993) Volume 5.P.40-41.

¹⁷ جيري بنثام (1832م) من رواد الفلسفة النفعية *Utilitarianism*.

¹⁸ برتراند رسل: حكمة الغرب 2/224.

¹⁹ جيمس بيرك: عندما تغير العالم، ترجمة ليلي الجبالي (الكويت، عالم المعرفة، 1414هـ، 1994م) ص333.

²⁰ المرجع السابق ص334.

ارتقائي يؤدي إلى مجتمع مكون من الأفراد الناجحين²¹، ومن ثم نجد الصراع من أجل البقاء كان سببا في تحسين البيئة، ولذا فأى تدخل من جانب الدولة من المسائل الاجتماعية مثل الإسكان، وقوانين المعونات الحكومية، والمؤسسات الخيرية والإجراءات الخاصة بالمصانع والبنوك أو رفع الرسوم الكمركية، كل هذه المسائل سوف تعمل على تسهيل الحياة على غير القادرين على المنافسة ليعيشوا على حساب الإضرار بالمجتمع ككل"²².

ماهية نظرية دارون

إن جميع الكائنات تطورت من أشكال في غاية البساطة، وبصورة تدريجية مع الخضوع للتعديلات الطارئة، وصاغ دارون هذه النظرية باسم الانتقاء الطبيعي *Natural Selection*، وعندما نقول الدارونية فإنه يتبادر إلى الأذهان معنيان، أحدهما ضيق والثاني واسع، فالأول يرتد إلى نظرية التطور العضوي التي ابتدعها دارون وبلورها العلماء بعده، والثاني يرجع إلى منظومة علمية معقدة للمجتمع واللاهوت والتفكير الفلسفي، وهي منظومة حفزتها نظرية التطور البيولوجي. إن نظرية التطور العضوي من اكتشافات دارون وألفرد والاس *Alfred Russel Wallace*، جاءت هذه النظريات من خلال إلهاماته من وراء المشاهدة والمراقبة والملاحظة في جزيرة *Galapagos Archipelago*. ويمكن إيجاز هذه النظرية (الانتقاء الطبيعي) من خلال النقاط التالية:

أولاً) وجود الحيوانات والنباتات تعرض صور التباين.

ثانياً) بعض الأشكال تعطي الكائن العضوي بعض المزايا من بين الكائنات الكثيرة عند الصراع للحياة.

ثالثاً) الأشكال الملائمة ستحول خصائصها النافعة إلى الأشكال التي تأتي بعدها.

رابعاً) التزايد في عدد الكائنات (الأشكال الأولية) سينتج عدداً أكثر من الأشكال اللاحقة (السلالة)، ومن ثم فإن البيئة ستساعد الأشكال الملائمة، وحينئذ ستكون الأشكال الملائمة أكثر وأوسع من الأشكال غير الملائمة.

²¹ ويوضحه أن الفلاح في مزرعته عندما يجد أشواكا ونباتات ضارة غير نافعة أو هزيلة تعترض نمو النباتات النافعة المقصودة، فإنه بلا تردد سيقلعها صاحبها حفاظاً على النباتات النافعة، وهذا منطقي للغاية، و لكن الخطأ يكمن في تطبيق هذه المسلمة على عالمي الحيوانات والإنسان، ولعلنا نخفف الأمر ونقبله في عالم الحيوانات التي لا نعرف عنه إلا ما يبدو لنا، ولكن حتى في عالم الحيوانات فإن إفنائها أي الحيوانات الضعيفة لأبقاء القوية جريمة بشعة في نظر الدين والعقل، والخطر كل الخطر في اجترار النظرية إلى عالم الإنسان، وهذا ما حدث في ألمانيا في عهد النازيين.

²² المرجع السابق ص 345.

آثار نظرية دارون

إن تلامذة دارون روجوا كثيرا لنظريته، وهذا يقوي التيار الفكري المادي من جانب آخر، ويعني ذلك انحسار التيار الديني. ومن هؤلاء:

أولا) كارل فوجت *Karl Vogt* كان أستاذ الجيولوجيا بجامعة جنيف، حيث قام برحلات في أوروبا حاضر فيها حول كتاب دارون مستخدما نص الكتاب، مما نتج عنه تفاهم الصراع بين العلم والدين.

ثانيا) وليم درابر الأمريكي *William Draper* استخدم نظرية دارون لتعزيز آرائه ضد الدين، وبشكل عنيف ضد الكنيسة الكاثوليكية، وقد كان رد الفعل عنيفا في أمريكا اتخذ صورة فورية أصولية، وتعميد جماهيري، واستمر الوضع كما هو عليه حتى عام (1925م) حيث أدانت محكمة جان سكوبس *John Scopes* النظرية التي قوضت سلطة الكتاب المقدس²³.

وكلما انتشرت النظرية كلما اشتد الصراع بين العلم والدين، وقد حدث ما يصور هذا النوع من الصراع وكيفيته، فإن هكسلي²⁴ (1895م) *Thomas Henry Huxley* صديق دارون قال للأسقف سوابي سام *Soapy Sam* في المناظرة التي أقامتها جامعة أكسفورد: "إنني أفضل أن يكون جدي قردا على أن يكون أسقفا"²⁵. وأدق تصوير للعداء بين القسس والمفكرين ما ذكره الفيلسوف نيتشه في مرضه لأخته: "ولا تدعي قسيسا ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبري، في وقت لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسي، أريد أن أدفن في قبري وثنيا شريفا"²⁶.

بدا للفكر الغربي ما لم يكن يحتسبه عندما ألف دارون كتاب أصل الأنواع حيث أحدث الكتاب ضجة كبيرة، وصراعا وخيما بين العلم والدين، يقول كرين: "وبدا فكر دارون في نظر كثير من المسيحيين خاصة بعد أن روج له تلامذته في الخارج، ليس فقط منافيا للتفسير الحرفي لسفر التكوين، بل إنه في رأيهم إنكار صريح لأن يكون الإنسان مختلفا بأي وجه من الوجوه عن الحيوانات الأخرى"²⁷.

والذي يبدو أن دارون لم يقصد هذا الذي ذكره خصومه، بل إنه توصل من خلال تجاربه الكثيفة كعالم بيولوجي إلى قناعة كاملة بالتطور العضوي، إلا أن

²³ جيمس: عندما تغير العالم ص 336 وما بعدها.

²⁴ وقد ألف حفيد هكسلي المعروف ب (جوليان هكسلي) *Julian Huxley* البريطاني كتابا أسماه (الإنسان يقوم وحده) *Man stands alone* وهو أغلب الظن من تأثيرات جده، ثم جاء موريسون *Gressy Morrison* فألف كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) *Man does not stands alone* ردا على نظرية دارون، وعلى المؤلف المذكور.

²⁵ جيمس: عندما تغير العالم ص 336.

²⁶ ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي: ترجمة فتح الله المشعشع (بيروت، مكتبة المعارف، ط5، 1405هـ، 1985م) ص 517.

²⁷ برينتون كرين: تشكيل العقل الحديث ص 221-222. وبرتراند رسل: حكمة الغرب 225/2.

نظريته تقتضي ذلك، أي نفي مخلوقية الإنسان، ونفي قدرة الله التي خلقت كل شيء، فهذه النظرية في كنهها ونهايتها إنكار للعناية الإلهية، وبيان ذلك أن الإنسان – وهو الذي يمثل نهاية المطاف في المراحل المختلفة – استطاع مع ذلك أن يحتفظ باصالته، وأن يتأقلم في البيئة التي ترعرع فيها²⁸، واستطاع مع ذلك أن يخترع لنفسه ديناً يلائم طبيعته، وما اختلاف الأديان إلا دليل واضح على أنها من بنيات ثقافات الشعوب المختلفة، فهي في جوهرها تراكمات خرافية *Mythical Accretions* من بقايا الثقافات المتطورة، ومن هذا المنطلق تكمن الخطورة على الأديان السماوية *Abrahamic Faith*.

ومن أهم هذه الآثار التي تركتها نظرية دارون في الساحة الفكرية، وفي التاريخ الإنساني العام:

أولاً) الناحية العرقية.

لقد اتخذت نظرية دارون في كل صقع صورة، ففي روسيا اتخذت صورة صراع طبقي، وفي الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت صورتين، إحداهما رأسمالية مثلها جراهام سومنر *Graham Sumner*، والثانية صورة اجتماعية إيجابية مثلها هربرت سبنسر *Herbert Spenser*، وفي ألمانيا اتخذت صورة عرقية متهورة مثلها هايكل *Earnest Haeckel*، ففي عام (1867م) بدأ هايكل الألماني يلقي المحاضرات حول النظرية في كل أنحاء العالم، وكانت هذه النظرية تمثل بالنسبة له فلسفة كونية²⁹. وكذلك أوتو أمون *Otto Ammon* أحد القادة العنصريين الألمان، وهو عالم الانثروبولوجيا، حيث يقول: "إن قوانين الطبيعة هي نفسها قوانين المجتمع، فالشجاعة والمكر والتنافس فضائل، ولهذا كان لا بد أن تصبح نظريات دارون بمثابة الديانة الجديدة لألمانيا، وهذا يعني بطبيعة الحال أن الصراع العرقي ضروري للبشرية"³⁰.

وقد غدت هذه النزعة العرقية ثقافة كل ألماني آنذاك فهذا الكسندر بلويتز *Alexander Ploetz* ينادي بتكوين هيئة قومية مهمتها فرز الوالدين بهدف التأكد من نقاوة الجنس الألماني، والحد من إنجاب أطفال ذوي عيوب جسمانية، وفي هذا الاتجاه أصدر بلويتز بالفعل من عام (1904م) جريدة تحسين النسل، أسماها الأرشيف *Archive* أهدى أول عدد منها إلى هايكل، كانت تلك الجريدة تشتمل على افتراضات بالعمل على تنشئة مجتمعات على غرار تلك المدينة العظيمة التي خططها تيودور فريتش *Theodor Fritsch* وأسمائها

²⁸ ولهذا لما سئل دارون عن الديناميات مع كونها اندثرت، فأجاب أنها لضخامة أجسامها لم تستطع التأقلم في البيئة أو أنها لم تستطع تبيئة أجسامها، فسيبيل البقاء القدرة على التكيف.

²⁹ جيمس: عندما تغير العالم ص 343.

³⁰ المرجع السابق والصفحة نفسها.

ميتجارد *Mittgard*، وأصبح فريتش بعد عام (1918م) الموجه الأيدولوجي لحركة الشباب التي عرفت باسم إله الجنس الآري (آرتاماتسين) *Artamarzen*، ومن بين مؤسسي هذه الحركة هنريش هيلمر³¹ *Henrich Himmler* وأدولف هيس³² *Adolf Hess*. وقد ذكر جورافسكي عن ساندرسون قوله: "الجنس الآري³⁴ العظيم وحده فقط القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الدينية والسياسية والحرية الفكرية"³⁵.

وقد بين جيمس أن العنصرية في واقع الأمر كانت واضحة جلية قبل صدور كتاب دارون عن أصل الأنواع، فهي تترد إلى صدور كتاب جوزيف آرثر الفرنسي (1883م) *Joseph Arthur De Gobineau* الموسوم بـ (حول المساواة بين الأجناس البشرية) *Compte de Gobineau*، وعندما صدر كتاب دارون بعد ذلك أسبغ احتراماً مصطنعاً على فكرة نقاء العرق الإنساني³⁶.

ثم جاء علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، وألفوا مضاهاة بين اللغات الجرمانية واليونانية والسنسكريتية التي هي لغة الفيدا، فبنوا على ذلك أن اللغات الأوروبية تترد إلى السنسكريتية، وهذا يعني أن الجنس الآري هو أصل الشعوب الأوروبية، قال جوزيف: "إن الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلفت كل ما له قيمة في الحضارة وحافظت عليه"³⁷. والتفوق في الجنس يقتضي التفوق في العقل، لذلك ذكروا للعقل الآري خصائص ومميزات - لا مجال لذكرها هنا- تفوق العقل السامي (الآرامية والسريانية والعبرية والعربية).

الناحية السيكولوجية

³¹ هنريش هيلمر هو رئيس البوليس السياسي في عهد هتلر النازي.

³² أدولف هيس كان نائباً لهتلر.

³³ جيمس: عندما تغير العالم ص 344-345.

³⁴ والآري نسبة إلى آريا، وآريا اسم شعب كان مهده النجد الفارسي من بلاد الأفغان، ثم انحدر فيما حوالي 2000 عام قبل المسيح إلى الشمال الغربي من الهند، ومعه دين جديد من أديان الشرك، وهو دين الفيديين، وله كتاب مقدس هو مجموع مزامير موجهة إلى الإلهة تسمى الفيدا، وهو اليوم دين البراهمة ودين الهندوسيين، لم يدخله إلا تغيير يسير". انظر: مصطفى عبد الرازق: تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (دم. طبت مكتبة الثقافة الدينية) ص 9-10.

³⁵ جورافسكي، أليكسي: الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الحداد، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د. ط، 1417 هـ، 1996م) ص 28-29.

³⁶ جيمس: عندما تغير العالم ص 344-337-338.

³⁷ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د. ط) ص 28-29.

كان لنظريات دارون تأثير بليغ في أفكار وتصورات سيجموند فرويد³⁸ إضافة إلى تأثيرات أخرى، منها ظهور النظريات العلمية في حقول معرفية متنوعة، والتي كانت قد أضعفت تأثير الدين في نفسية شرائح المجتمع الأوربي. قال فرويد وهو يشير إلى الحضارة الأوربية المسيحية بقوله: "إن تأثير الدين لم يبق كالسابق... ويرجع ذلك فرويد إلى جملة أسباب من أهمها: زيادة الروح العلمية بين الشرائح العالية في المجتمع الإنساني، والنقد قد خفف من قيمة الوثائق الدينية، والعلوم الطبيعية أرتنا أخطاء في تلك الوثائق"³⁹.

انطلق فرويد من التفسير الجنسي لتطور الحياة، وهي أهم حركة في علم النفس المبني على ملاحظاته من خلال معالجة المرضى، فذكر أن المشكلة الأساسية التي تعترى نشأة الإنسان هي الكبت، وتجنبها لا بد من إشباع كل شهوة منذ الطفولة، حيث يقول: "وأما القوة المميزة للحياة النفسية والفاعلة فيها، فإنها اللبيدو *Libido* وهو نوع القوة الجنسية بأعم المعاني... وقال: إن كل الظواهر النفسية العليا ما هي إلا إعلاء لدوافع الشبقية الجنسية"⁴⁰. ولما كان الدين مهذباً لهذه الرغبة، عده فرويد من أخطر ما يهدد هذه السيرورة الحياتية، حيث يقول: "الدين هو أشد الأخطار التي تهدد سلطان المعرفة العلمية وحدودها، لما للدين من أثر فعال في المجتمع مقارنة بالفلسفة التي هي ذات تأثيرات محدودة ضعيفة وغير مباشرة في أغلبية البشر، في حين أن الدين له قوة فعل مؤثرة في أكثر العواطف الإنسانية أهمية"⁴¹.

والدين في نظر فرويد وهم *Illusion* صنعه الإنسان على صورة شخص متعال يلجأ إليه للذود عن النفس ضد قوى الطبيعية الخارقة، وعليه فإن الأفكار الدينية بالطبع مرت بمراحل تطورية، ثم تماسكت بمراحل مختلفة بواسطة ثقافات متنوعة"⁴². ولعل هذه الفكرة استمدها فرويد من أوجست كونت صاحب قانون المراحل الثلاث، وبالأخص المرحلة الأولى وهي الأسطورة الخيالية.

الرأسمالية *Capitalism*

أخذ كارل ماركس جذور نظريته (الصراع الطبقي) من نظرية دارون التطورية العضوية، وفي مقابل ذلك وجد من أشياع النظام الرأسمالي من انطلق من تلك النظرية لتبرير أفعاله وتصرفاته، يقول جيمس: "ومنذ الحرب الأهلية وحتى العهد الجديد *New Deal* في عهد روزفلت كان رجال الأعمال يفسرون أفعالهم بمفهوم

³⁸ ولد سيجموند فرويد *Sigmund Freud* في تشيكوسلوفاكيا السابقة سنة (1856م) ومات في لندن مصاباً بمرض السرطان في الفم سنة (1939م)، ومن مؤلفاته وهي كثيرة، (تفسير الأحلام *Interpretation of Dream* التوتوم والمحرم *Totem and Taboo* ومستقبل وهم *The Future of Illusion*)

³⁹ *Sigmund Freud; The Future of an Illusion, translated by; W.D.Robson Scott (London, The Hogarth, Press, 1962). P. 34.*

⁴⁰ بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا ص55-56.

⁴¹ *Great Books of The Western World (Chicago, 1990) Volume 5.P. 875.*

⁴² *Sigmund Freud; The Future of an Illusion. P.16.*

الدارونية الاجتماعية، فكل فرد في السلم الاجتماعي وحتى ساعي المكتب الذي يلهث وراء ثلاثة دولارات هي أجرته في الأسبوع، يسهم بحركته السريعة، ودأبه على العمل في تحقيق الخير والتقدم للبشرية، وقد وجد القول الأمريكي أنهض وخاطر مبرر وجوده العملي، ولا يزال هو الأساس الذي تقوم عليه الحياة الأمريكية اليوم"⁴³.

ولا غرو أن تنشأ جمعيات خيرية لتنظيم المعونات وفق النظرية الدارونية الاجتماعية (1877م) في الولايات المتحدة الأمريكية، ويمثل هذا التيار هربرت سبنسر *Herbert Spenser*⁴⁴. ومن أبرز مؤيدي هذه النظرية جراهام سومنر *Graham Sumner* أستاذ العلوم السياسية والاجتماعية بجامعة ييل *Yael*، حيث يقول: "والنظام الرأسمالي هو أنسب نظام يلائم كلا النشاطين... إن أصحاب الملايين هم نتاج الانتخاب الطبيعي"⁴⁵.

ولعلنا بحاجة إلى توضيح هذه الأيدولوجية من هذه الزاوية، مؤداها أن أصحاب الأموال الطائلة استطاعوا بجهودهم وعرق جبينهم وخبرتهم جمع الأموال، أما غيرهم من المعوزين والمحاييج فهم ليسوا كذلك، بل هم كالأشواك المعقدة بالنباتات النافعة التي تضر أكثر مما تنفع، فكون هذه الطبقة الفقيرة تستحق أمر طبيعي للغاية، وهو حتمي من الناحية الاجتماعية، لأنها لا تستحق الحياة بل حياتها في موتها، ومن هذا المنطلق أدخلت النظرية في النطاق السياسي فأبيدت شعوب بكاملها، لكونها أهلا لذلك، وهي تستحق هذه الإبادة، لأن النقاء الطبيعي يقتضي ذلك، والحياة أساسا وضعت للقوى الغالبة.

الحقل السياسي

قال برتراند رسل: "وعندما ترجمت نظرية بقاء الأصلح إلى اللغة السياسية أصبحت مصدرا تستلهم منه دكتاتوريات القرن العشرين جانبا من تفكيرها السياسي، على أن لو كان دارون نفسه قد شهد هذه الامتدادات لنظريته لكان من المستبعد أن يقرها، لأنه كان هو ذاته ليبراليا، كان يؤيد جماعة الراديكاليين وبرنامجها الإصلاحية"⁴⁶.

ومن هؤلاء أدولف هتلر (1945م) *Adolf Hitler* وموسوليني (1945م) *Benito Mussolini* ويرتد تأثيرهما إلى الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (1900م) *Friedrich Nietzsche* ويعود تأثير هذا الأخير إلى نيكولو ماكيافيلي (1527م) *Nicola Machiavelli* صاحب كتاب الأمير *The Prince* والخطابات *Discourses*، فمن أقواله: "إن الأنبياء غير المسلحين يخفقون دائما"⁴⁷. وصنيع هتلر خصوصا يرتد إلى بقايا

⁴³ جيمس: عندما تغير العالم ص348.

⁴⁴ المرجع السابق ص346.

⁴⁵ المرجع السابق ص348.

⁴⁶ برتراند رسل: حمة الغرب 225/2.

⁴⁷ المرجع السابق 29/2.

فلسفة نيتشه المؤسس الحقيقي للنازية، والعدو اللدود للديمقراطية، والملحد المحارب لله فهو القائل: "لقد مات الله"⁴⁸. وقد كان نيتشه يدعو إلى نظرية الإنسان الكامل *Superman*، فهذا يعطي تفسيراً إضافياً يعترض تأثيره المباشر في سلوكيات هتلر. يقول كرين: "والذي لا ريب فيه أنه لو قدر لنيتشه العيش، وامتد به العمر ليرى هتلر وجورنج وجوبلز ومن هم على شاكرتهم لوجدتهم أشد إثارة للمقت والكرهية"⁴⁹.

وقد سبق برتراند رسل إلى ذلك بقوله: "ومن الجائز بالفعل أن بعض الطغاة قد استمدوا بعض الوحي من نيتشه، ولكن ليس من العدل أن نعهده مسؤولاً عن شرور أناس لم يفهموه في أحسن الأحوال إلا فهما سطحياً، ذلك أن نيتشه كان خليقاً بأن يعارض بقوة ما طرأ على بلده ذاته من تصورات سياسية، لو كان العمر قد امتد به حتى يشهد هذه التطورات"⁵⁰.

ويأتي فرنر سومبارت عالم الاقتصاد الألماني، وهو يبزر الحروب الطاحنة أو ما يسميها بالحروب القومية بأنها السبب الجذري لكل شيء آخر نصفه بالحديث نظراً لأن حاجة الدولة إلى نفوذ لدفع أجور جيش محترف حفزت الجهود لكي تكون بنية الدولة أكثر فعالية"⁵¹. وكل من قام في ألمانيا بدعوة إصلاحية فيها فإنه لا ينجو من الطعن من قبل الناس، وعدوه امتداداً لعنصرية هتلر، والعجيب أن مارتن لوثر *Marten Luther* (ت1546م) لم تخل دعوته الإصلاحية من التهم العنصرية الألمانية، حيث قال كرين: "كان لوثر وراء دعوته الإصلاحية قومياً يفضل الألماني على غيره، ويقصد بذلك على وجه الخصوص الإيطاليين، وهذا ما نلاحظه من خلال ما كتبه لوثر باللغة الألمانية حيث يقول لوثر: "لقد حان الوقت لكي يكف الشعب التيتوني عن أن يكون دمياً في يد بابا روما"⁵². ولهذا يصفه اليهود والمشايخون لهم بأن لوثر كان السلف التاريخي لهتلر النازي.

ثالثاً) الماركسية ومنهجها الديالكتيكي

الماركسية هي تلك الفلسفة الشعبوية التي ظهرت بسرعة خاطفة مقارنة بغيرها من الفلسفات. بين طبقات غير نخبوية، وهي من ثمرات الأيدولوجيات المتنوعة، جاءت الفلسفة بنظام اقتصادي متكامل له أسسه وقواعده، لكي يغدو قطبا مناهضاً للرأسمالية الغربية، ولتعطي تصوراً جلياً خاصاً حول الدين والأخلاق والسياسة⁵³.

⁴⁸ Philip.E.Devine; *Relativism and God* (Indian, Natre Dame, 1989) P. 70.

⁴⁹ كرين: تشكيل العقل الحديث ص293.

⁵⁰ برتراند رسل: حمة الغرب 148/2.

⁵¹ كرين: تشكيل العقل الحديث ص130.

⁵² المرجع السابق ص87.

⁵³ الماركسية نسبة إلى كارل ماركس (1818م) *Karl Heinrich Marx*، ولد في ألمانيا، اعتنق والده البروتستانتية اللوثرية *Lutheranism*، بدأ بدراسة القانون بجامعة بون (1841م) ثم تحول إلى جامعة برلين لدراسة الفلسفة، ونال الدكتوراه بجامعة يينا *Jena* وقد كان عنوان رسالته

مصادر الفلسفة الماركسية

لهذه الفلسفة مصادر عديدة نوجزها كالآتي:

أولاً) أفلاطون (348 ق.م) Plato استمد ماركس فلسفته من أفلاطون في مرحلتها الأخيرة، والتي سماها ماركس بالشيوعية *Communism* بوصفها نهاية التاريخ، فما عند أفلاطون يمثل نهاية ما تقف عند فلسفة ماركس، وهي في نهايتها الدعوة إلى الطوبائية *Utopia* أي عالم مثالي أو المدينة الفاضلة.

ذهب بعض الباحثين ومنهم علي عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة والهرسك الأسبق أن فكرة إقامة مجتمع مثالي لا طبقي عند ماركس مصدرها المسيحانية اليهودية *Messianism* والتي تعني الخلاص النهائي لبني إسرائيل من عالم الشتات والاضطهاد بظهور المسيا المنقذ *Savior*، وإقامة دولة مثالية على الأرض، يقول بيجوفيتش: "فكرة أن تكون الجنة هنا على الأرض فكرة يهودية في أساسها سواء من ناحية خصائصها أو من ناحية أصلها، بل إن بيجوفيتش يذهب أبعد من هذا فيقول: "وجميع الثورات والطوباويات والعقائد الاشتراكية وما يجري مجراها من أفكار تتطلع إلى جنة في الأرض كلها يهودية صادرة من العهد القديم"⁵⁴.

تحدث أفلاطون عن الطبقات البرجوازية، وخصائصها التي ينبغي مراعاتها بين الطبقات المختلفة، حيث ذكر بأن: "تكون أولئك النساء بلا استثناء أزواجا مشاعا لأولئك الحكام، فلا يخص أحدهم بنفسه بإحداهن"⁵⁵، وكذلك أولادهم يكونون مشاعا، فلا يعرف والد ولده، ولا ولد والده"⁵⁶. لكن أفلاطون كما هو معلوم، وكما ذكر هو قبل ذلك بصفحات، يرى استثناء المحارم، وإن كان قد أطلق القول، ولكنه لم يرد بذلك.

ثانياً) نظرية القيمة المبنية على العمل التي يمثلها ريكاردو *Ricardo* يقول برتراند رسل: "وكان الإسهام الهام التالي في هذا الميدان – الثورة الصناعية- هو نظرية ريكاردو في القيمة المبنية على العمل، وهي النظرية التي تبناها ماركس"⁵⁷.

ثالثاً) هيغل (1831م) George Wilhelm Friedrich Hegel

هيغل هو صاحب الفلسفة المثالية الجدلية *Dialectical Idealism* والمجدد الداعي إلى قانون الصراع بين الأضداد *The Struggle of the Opposites* هيغل شخصية

الاختلاف بين ديموقريطس وأبيقور حول فلسفات الطبيعة *On The Differences between the Democritus and Epicurean Philosophies of Nature* وفي المراحل الجامعية اتجه نحو التيار اليساري الهيجلي وعرف بالملحد المحارب *Militant Atheist* وفي باريس غدا صديقا لفرديريك أنجلز (1895م) *Friedrich Engels*، توفي ماركس سنة (1883م). انظر: Enoch, Samuel: *Philosophy, History and Problems* (New york, Mc Graw Hill, 1989) P.402.

⁵⁴ علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص273.

⁵⁵ هذه النظرية تسمى بالعدمية *Nihilism* في الفكر الفلسفي العام، أي الإباحية واستحلال المحرمات، لها جذور في الفكر الدين العام، في اليونان والهند والصين وديانات إيران القديمة، واليهودية والمسيحية والإسلام، وخاصة عند الباطنية والصوفية الغلاة.

⁵⁶ أفلاطون: الجمهورية: ترجمة حنا خباز (بيروت، دار القلم، ط5، 1985م) ص157.

⁵⁷ برتراند رسل: حكمة الغرب 211/2.

غير عادية، فهي من أعظم الشخصيات المؤثرة في التيار الفكري العام، وقد كانت شخصية محورية لفلاسفة الغرب طرا، فمن متبع له لا يحيد عنه، ومن منتقد لم يترك مفردة من فلسفته إلا انتقدها، قال بوشنسكي وهو يصفه: "يل يكفي أن نفكر وحسب في النتائج الضخمة التي أثمرها فكر الفيلسوف الألماني هيغل، وهو الفيلسوف الذي يصعب كثيرا فهم كتاباته، فهو الذي فتح الطرق لتظهر حركات مختلفة مثل الفاشية⁵⁸ والحركة الهتلرية والشيوعية، وهو بهذا إحدى القوى التي قامت بتغيير وجه العالم في القرن العشرين الميلادي"⁵⁹.

ولمعرفة فلسفته في قانون الصراع بين الأضداد يمكن توضيحه كالآتي: "إن الكون كله بجميع ما فيه، ومن فيه إن هو إلا تعبير عن الروح المطلقة *The Absolute Spirit* وهذا الكون يتبدى بخطوات متدرجة ليست فجائية، فالخطوة الأولى يمكن تسميتها بالوضع، وهي تتكشف ثم تتلوها خطوة ثانية تناقض الأولى، وهي نقيض الوضع، وتأتي الخطوة الثالثة وهي الأخيرة، وهي التقاء الطرفين، الوضع ونقيضه، فيغدوان دمجا، وهو وضع آخر يتلوه نقيضه، وهلم جرا"⁶⁰. وبعبارة أخرى الصراع بين الدعوى *Thesis* ونقيضها *Anti Thesis* والجامع بين ذينك الطرفين *Synthesis* وعن هذا كان تصور الوضعي للمسيحية، حيث تصور أتباعه أن المسيح (الدعوى) وبولس (نقيضها) والكاثوليكية الجامع المشترك بينهما.

وقد اشتهر عن ماركس قوله: كانت الفلسفة تسير على رأسها، فأردت أن أجعلها تسير على قدمها، وعليه، فقد أحدث انقلابا هائلا في نظرية المعرفة حيث حول هذا القانون من عالم الأفكار والمثاليات إلى عالم المادة والواقع الاجتماعي، فطبقه على النظام الرأسمالي *Capitalism* حيث شبه صاحب رأس المال بالوضع،

⁵⁸ الفاشية كلمة أطلقها موسوليني سنة 1919، وقد سيطر على مقاليد الحكم في إيطاليا حتى سقوطها بيد الحلفاء سنة 1945، والفاشية مشتق من الكلمة اللاتينية *Fasces* أي حزمة من العصي ومعها الفأس، والمعنى أن العصا الواحدة لا تصلح، وليس معها قوة ولا مقاومة، وإنما العصي مجتمعة لا يكسرها شيء، ويرمز الفأس إلى القائد أو الزعيم الواحد أو الدولة المتحدة، تحت إمرة زعيم واحد يحكم قبضته عليها ويوحدها. أنظر: عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000م) ص 587. قال موسوليني في خطاب ألقاه عام (1925م): "الكل في الدولة، ولا قيمة لشيء إنساني أو روعي خارج الدولة، فالفاشية *Fascism* شمولية، والدولة الفاشية تشمل جميع القيم وتوحيدها، وهي التي تؤول هذه القيم وتفسرها، إنها تعيد صياغة حياة الشعب كلها". إمام عبد الفتاح إما: الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) ص 45.

⁵⁸ أليكس، جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمه عن الروسية: خلف محمد الحداد (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1417هـ، 1996م) ص 24.

⁵⁹ بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا ص 13. الحركة الهتلرية النازية هي النازية نسبة إلى كلمة نازي *Nazi* وهي اختصار لاسم الحزب العمال الاشتراكي القومي الألماني *National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei* بزعامة هتلر الذي سيطر على ألمانيا سنة (1932م) انظر: عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ (القاهرة، دار الشروق، ط4، 1426هـ، 2005م) ص 49

⁶⁰ زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1980م) ص 343.

والعمال بنقيضه، ولا يمكن قيام أحدهما دون الآخر فيتصارعان لإخراج وضع آخر ليتلوه نقيضه، ومعنى ذلك أن يكون العامل أيضا بمرور المراحل صاحب مال كنقيضه السابق ونظيره اللاحق.

رابعاً) لودفيج فيورباخ (1872م) Ludwig Andreas Feuerbach

يقول بوشنسكي: "وقد كان لودفيج فيورباخ هو الممثل المشهور للييسار الهيجلي، وقدم تفسيراً مادياً لنظام هيجل، وتصور تاريخ العلم، وليس على أنه مظهر لتطور العقل أو الروح كما قال هيجل، بل على أنه مظهر لتطور المادة، وقد ارتبط بهذا الفيلسوف ارتباطاً قوياً"⁶¹.

خامساً) دارون

يقول جيمس: "قرأ ماركس كتاب دارون أصل الأنواع فكتب لأنجلو يقول: إن هذا كتاب أصل الأنواع هو الأساس المستمد من التاريخ الطبيعي لأفكارنا، فالمادية الجدلية هي العملية التاريخية الأساسية التي تم الجمع بواسطتها بين الآراء المتصارعة للوصول إلى مرحلة ثالثة من التطور تقدماً"⁶².

إن المادية الجدلية *Dialectical Materialism* ترى أنه تتجمع وتتكدس الأضداد في وجود شيء ما مثلاً، ويحدث الصراع بينهما لكونها تريد الانفلاق لتظهر في ثوب جديد، وهذا يمكن تقريبه إلى الأذهان بمثال محسوس، وهو أن الحداد الذي يذيب الحديد أو النحاس لا ريب أن يحدث أثناء هذه العملية تغير وتحول من المادة الأولية فتحدث مادة أخرى بلون آخر، ومعنى ذلك أن ما علق بها ابتداء كان شأناً وأهلاً أن يذاب ويزال، ويبقى الباقي أو المادة الأصلية المتخذة للاحتفاظ والانتقاء والاجتباء، وهكذا عند الماديين، فإن هذا التحول والتغير يؤدي في النهاية إلى التقدم، وهو في حقيقة الأمر يسمى بالصراع بين الطبقات، وقد بين ماركس هذه النظرية في كتابه البيان الشيوعي لأول مرة سنة (1848م)، وهذه الأيدولوجية لا شك في كونها استمدت بعض جذورها من نظرية دارون التطورية، وعلى هذا الأساس فالوجود كله في سيرورة أحادية بحيث يفنى القديم ويحل محله الجديد، أي أنه ليس ثمة أي عنصر خارج هذا النطاق الضحل، فلا هدف ولا غاية وراء هذا الوجود، وهذا في النهاية وفي البداية إنكار مطلق لعالم الميتافيزيقيا الذي لا يدركه الحس.

فالماركسية ترى أن الدين أي دين ليس له وجود إلا في عالم الخرافة والأساطير، فالدين في تصوره مرحلة من المراحل التي يمر بها الإنسان عندما يقع

⁶¹ بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا ص106.

⁶² جيمس: عندما تغير العالم ص348-349. وهذه المصادر الرئيسية هي أهمها، لعل ثمة مصادر أخرى كونت عقلية ماركس، ويحاول بعض الباحثين ربط نظريات ماركس بعرقه اليهودي، فانطلقوا من خلال ذلك إلى تفسير فلسفة ماركس بأنها تعكس خلفيته الثقافية، وهذه محاولة قد تكون ناجحة، ولكن ماركس عندما عادى الدين، عاداه بغض الطرف عن نوعه وكنهه وسنخه، فكل دين عند ماركس أفيون الشعوب، فهو قد هدم دينه قبل دين غيره، ثم إن والده كما في سيرته اعتنق البروتستانتية، وهذا ما حصل لكثير من اليهود الذين تنصروا في ألمانيا، وهذه التفسيرات نالها عند الباحثين العرب من القوميين، وكذلك عند بعض الإسلاميين، ولعل ذلك من تأثيرات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في الشرق الأوسط، ولا شك أن لديهم حججاً وأدلة تثبت صدق دعواهم، ولكن الباحث يشكك في هذه النظرية برمتها.

في خوف وهلع من الطبيعة، وخاصة عندنا تغضب الطبيعة، فيرى الإنسان نفسه هشاً هزيعاً ضعيفاً يلجأ إلى من ينقذه من هول الموقف، فيتخذ الدين المنقذ الحقيقي لخوفه وهلعه ووجلته، ويتخذ هذا الدين أشكالاً وضروباً وألواناً، يقول بوشنسكي: "فترى المادية التاريخية أن الدين ما هو إلا عبارة عن نسيج من الأقوال الخاطئة والعجيبة، والتي يدينها العلم الطبيعي... وينشأ الدين من الخوف، فقد شعر الإنسان بضعفه أمام الطبيعة ثم شعر بضعفه ثانية بإزاء من يستغلونه ويسيطرون عليه من البشر الآخرين، ولهذا فإنه اعتبر هذه القوى آلهة وعبدها، من جهة أخرى فإن الموجود البشري وجد تعزية ومواساة مما يقع عليه من الظلم، وجدهما من الدين، وفي الاعتقاد في قيام عالم بعد الموت"⁶³.

ونجد التفسير عينه عند الفيلسوف البريطاني برتراند رسل (1970م) *Bertrand Russell*

فوالدين: "عند رسل يقوم على الخوف، وبالتالي فهو شر، وهو كما يقول رسل: عدو للطيبة والذوق في العالم الحديث، وهو يوجد عند الأقوام التي لم تبلغ نضجها"⁶⁴. ولما كان الدين خرافة، فإنه لا يؤدي إلى تحقيق أي نجاح في سلك الحياة، فيرى ماركس: "أن الحقيقي هو الذي يؤدي إلى النجاح، ومعيار الحقيقة الوحيد هو العمل"⁶⁵.

ظاهرة العودة إلى الإيمان الديني

أولاً) المسيحية *Christianity*

نبدأ أولاً بالحديث عن هذه الظاهرة في المسيحية لكونها أول الديانات التي واجهت تلك التحديات، فقد ظهرت حركات إيمانية متطرفة، ومن أبرزها حركة الأغلبية الأخلاقية *Moral Majority* في أمريكا، ولن أتحدث عن هذه الظاهرة في المسيحية لأنني تحدثت بتفصيل وإسهاب عنها في بحث لي منشور⁶⁶. ولكن سأكتفي بمثال واحد ذكره الكاتب الأمريكي المعروف صموئيل هانتجتون *Samuel P. Huntington*. حيث قال إنه: "في سنة (1994م) 30% من الروس ممن أعمارهم أقل من خمس وعشرين سنة عادوا من الإلحاد *Atheism* إلى الاعتقاد والإيمان بالله، *Belief in God* و عدد الكنائس النشيطة في موسكو زاد من خمسين إلى مائتين وخمسين، ما بين سنة (1988م) إلى سنة (1993م)... وقد أصبح القادة السياسيون يحترمون الدين ويساندونه بشكل رسمي"⁶⁷.

ثانياً) اليهودية *Judaism*

⁶³ بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوربا ص117.

⁶⁴ بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوربا ص91.

⁶⁵ المرجع السابق ص115.

⁶⁶ مجلة جامعة دهوك (مطبعة هاوار، 2007م) المجلد (10) العدد(1) عرفات كرم ستوني: الأصولية المسيحية في العصر الحديث ص250.

⁶⁷ Samuel Enoch, Stumph: *Philosophy, History and Problems* (New York, Mc Graw-Hill, 1989).P.403.

أما اليهودية فمع كونها قبل المسيحية ظهوراً من الناحية التاريخية، لكنها هي الأخرى تعرضت وواجهت تحديات الحداثة الغربية، واليهودية ديانة عرقية مغلقة لا تقبل الأغيار في صفوفها، لأن غير اليهود أدنى مرتبة منهم، تقول مجلة الشبيبة لسان حال اللوبافيتش الصادرة في فرنسا، والتي من مبادئها الدعوة إلى المساواة والاخوة ومحاربة التعصب والاستبداد: "إذا كان الله قد خلق الكون كله وفق قسمة أساسية إلى أربعة مستويات ملكوتية، المعدني والنباتي والحيواني والإنساني، إلا أنه كتب أن ثمة في الواقع نوعاً خامساً، شعب إسرائيل، والمسافة أو البعد الذي يفصله عن النوع الرابع أي عن جملة الجنس الناطق البشري ليس بأقل من المسافة أو البعد الذي يفصل بين الإنساني والحيواني"⁶⁸. واليهودية مع محاولتها الانعزال والابتعاد عن العالم الخارجي، لكنها أيضاً تأثرت بمجريات الأحداث، فانشقت إلى ثلاث حركات رئيسية:

الأولى) اليهودية الإصلاحية *Reform Judaism*

مثلها موسى مندلسوهن (1786م) *Moses Mendelssohn*، وهو من دعاة الانصهار في ثقافة الغرب المسيحي، وهؤلاء نظروا إلى أحكام التوراة الشرعية الهالاه *Halakhah* (تشتمل على ستمائة وثلاث عشرة قاعدة شرعية) نظرة تاريخية مجردة، بمعنى أنها تراكمات ثقافية لظروف غابرة لا تواكب روح العصر. فمن أقواله: "أنا لا أقر بمبادئ خالدة *Eternal Truth* إلا ما أمكن تأسيسها أو التحقق من صدقها بالعقل"⁶⁹.

الثانية) اليهودية الأرثوذكسية (الحريديم) *Orthodox Judaism*

وهي فرقة تقليدية متزمتة قاومت كل دعوة إلى الإصلاح، وعدتها وساوس الشيطان، ومعنى ذلك أن التوراة جمعت بين دفتيها الحلول الجاهزة لكل مشكلة، وهذا ما يلزم منه أن الأحكام الشرعية لا تخضع لأبعاد الزمان والمكان والأحوال وما إلى ذلك⁷⁰، ومن الذين مثلوها موسى صوفر (1839م) *Moses Sofer* من يهود برسبورغ *Pressburg* حيث كان من ألد أعداء الحركة الإصلاحية، ودعوات الحداثة، ويعود إليه الفضل في انحسار تيار الحركة الإصلاحية في هنغاريا⁷¹. تحولت الإصلاحية بعد فشل المؤتمر الذي عقد في برسلاو (1846م) إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتمكنت بجهود إسحاق وايز (1900م) *I. Wise* وديفيد آينهورن (1899م) *D. Einhorn*

⁶⁸ جيل كييل: يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث ص 200. ويحاول اليهود بشق الأنفس مخالفة الأغيار أي غير اليهود حتى من الناحية الشكلية والمظهرية، حيث يقول موسى بن ميمون الأندلسي (1204م) وهو الفيلسوف اليهودي المعروف عند المسلمين بأبي عبيد الله الإسرائيلي، وصاحب الكتاب المعروف بـ(دلالة الحائرين): "ويجب أن يكون الإسرائيلي مختلفاً ومميزاً عن الآخرين في ملبسه، وفي سائر أعماله، مثلما هو مختلف في علمه وآرائه". أنظر: جماعة من مؤرخة اليهود: اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة: جمال الرفاعي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1415هـ، 1995م) ص 66.

⁶⁹ الحاخام أيسدور أبستاين: اليهودية عرض تاريخي: ترجمه أستاذنا الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح (الأردن، دار عمار، ط1) ص 176-177.

⁷⁰ Leo Trepp: *Judaism, development and life* (California, Belmont, 1982) P.350.

⁷¹ أبستاين: اليهودية عرض تاريخي ص 187.

من مناقشة بعض المبادئ في المؤتمر العام سنة (1885م) في بطسبرغ، وتوصلوا إلى مبادئ منها: الرفض الكامل للتشريعات الموسوية والربانية، واستبدال الأحد المسيحي بالسبت اليهودي، مع إدانة كاملة للنزعات القومية⁷².

الثالثة) اليهودية المحافظة Conservative Judaism

وهي فرقة انشقت عن الحركة الإصلاحية التي لجأت إلى الغلو والافتئات على معالم الدين اليهودي، فاتخذت موقفا وسطا *Mediating Position* بينها وبين الأرثوذكسية التي تحدثنا عنها قبل قليل، ومؤدى منهج اليهودية المحافظة الوسط أنهم أخذوا بأحكام الهالاخاه *Halakhah*، ولكنهم رفضوا النظرة التاريخية المتوارثة عن الكون والإنسان والحياة *World View Ethnos*، ويمثلها أيضا سمسون رفائيل هيرش (1888م) *Samson Raphael Hirsch* الذي لخص معالم مذهبه في شعارين متضافين هما:

(1) التوراة مع قانون الأرض.

(2) كل حلالا، ولا تسأل عن السبب.

وهؤلاء هم الذين أسسوا المنهج الوضعي التاريخي لنقد التراث الإسرائيلي،

وتسمى بالمدرسة الوضعية التاريخية *Positive Historical School*.

وبما أن تلك التحديات ظهرت في الغرب، فإن اليهود هناك واجهوا سيلها الجارف، ولأجل ذلك ظهرت الحركات الإصلاحية المنفتحة، والأرثوذكسية المغلقة، فالأولى رأت أن من المصلحة العامة بالنسبة للشعب اليهودي المنتشتت أن ينصهر في ثقافة الغرب المسيحي، وذلك حتى لا يتعرض للإضطهاد، وأن ذلك عامل مساعد لتبوأ اليهود مراكز حساسة في هيكل السلطة الزمنية في أوربا، وأول هذه المحاولات كانت في ألمانيا، ولهذا اتهم الإصلاحيون من قبل التقليديين بأنهم من أتباع دين (برلين)، وخاصة عندما استبدلوا اللغة الألمانية باللغات القومية العامة، ونشأ صراع جديد من ناحية أخرى بين مؤيدي الفكرة الصهيونية كسياسة قومية عنصرية، وبين الأرثوذكس ومعهم الإصلاحيون وبين المستنيرين حركة (الهسكله) *Haskalah* ويطلق على أتباع هذه الحركة بالمسكليم *Maskilim*، ويأتي دور الحاخام إبراهيم كوك (1935م) *Abraham Isaac Kook Hokohen* وهو أول حاخام كبير أشكنازي في فلسطين في زمن الانتداب البريطاني، فحاول الجمع والتوفيق بين الأرثوذكسية التي ترفض الصهيونية المنبجسة من أفكار الثورة الفرنسية، وعصر التنوير قبلها، وبين الصهيونية القومية أو بعبارة أخرى بين فكرة إلهية وشعور قومي، ومن هنا جاءت الصهيونية الدينية⁷³.

ولعل شدة هذه المعارضة تترد إلى خوف اليهود آنذاك من السلطات العثمانية باعتبارها حامية الأراضي الإسلامية، وخاصة مواقفها المعروفة تجاه اليهود في إقامة دولة دينية قومية لهم، ولهذا كانت الحاخامات تعارض الصهيونية: "خوفا من الدولة العثمانية، ومن المعارضين الحاخام موشيه هاليفي (1908م) (كبير حاخات

⁷² أبستاين: اليهودية عرض تاريخي ص 189.

⁷³ Leo Trepp: *Judaism, development and life* P.112.

القسطنطينية)، حيث بعث برسالة إلى كبير حاخامات القدس يعقوب شأوول اليسار يحذر فيها من نشاطات الصهيونية⁷⁴.

ولما نجحت ثورة الفتاة التركية (1908م)، عادت آمال اليهود لتحديد حركة الصهاينة، ويرجع الفضل إلى المفكر الصهيوني ولفسون⁷⁵، وقد تحقق ما تنبأ به هرتزل عام (1948م) *Theodore Herzl* بعد مضي خمسين عاما، وما قام به الحاخام كوك *Kook* من عملية الجمع والتوفيق بين الدين والشعور القومي شهد نجاحا ملموسا، وإن كان كوك لم ير ثمرة جهوده، فخلفه ابنه زفي يهودا كوك (1982م) فقد ترجم فكر أبيه، وبين أن الصهاينة مهما بلغ تدينهم، فإنهم حملة مهدوية إقتداء من حيث لا يدرون ولا يحتسبون⁷⁶. ففي سنة (1967م) تم إنشاء نظام اليشفوت هسدير *Yeshiva* المعاهد التلمودية العليا، الذي يتيح للشبان الصهاينة المتدينين (يشيفا) تجسيدا للتأليف أو المزاجية بين الفكرة الإلهية والشعور القومي⁷⁷.

وأول من قعد أصول الصهيونية الدينية هو تيودور هرتزل (1904م) *Theodore Herzl* في كتابه الدولة اليهودية *The Jewish State* الذي نشره عام (1895م) حيث يقول: "الحل الوحيد لمشاكل اليهود هو إنشاء دولة قومية مستقلة لهم"⁷⁸. ومع شدة معارضة الأرثوذكسية ومعهم الإصلاحيون أيضا خاصة يعقوب روزنهايم *J. Rosenheim* (1871م) وسيمون *Simon Dubrow* (1941م) وفرانز *Franz Rosenweig* (1871م) ولكن في نهاية المطاف تمكن الحاخام كوك *Kook* من الجمع بين دينك التيارين المتناطحين، وخاصة بعد أن تجلى لهم أن المصلحة العظيمة تتحقق لشعب الله المختار من خلال إقامة الدولة الصهيونية الدينية القومية⁷⁹.

ونتيجة لذلك ظهرت حركات العودة إلى الإيمان الديني في اليهودية، ومن هذه الحركات حركة تشوفا *Teshuva* وهي كلمة عبرية تعني العودة والتوبة *Revisionism or Return to God* فهي عودة إلى الهالاخاه *Halakhah* أي الأحكام الشرعية البالغة ستمائة وثلاث عشرة قاعدة.

بدأت هذه الحركة في أمريكا مع ظهور الجيل الثالث، وهم مهاجرو عام (1880-1920) حيث هاجر ملايين اليهود من أوروبا الشرقية إلى هذا البلد أمريكا، وقد بلغت النسبة أوجها بظهور الجيل الرابع⁸⁰. ومن الذين يمثلون حقيقة هذه الحركة في تطبيق مبادئها الربابي أبراهام هاليفي *Abraham Halevi Beruchim* حيث كان يتجول في الطرقات، ويدعو الناس إلى التوبة، ومن ثم يجمع فئة من الناس حوله، ويقودهم إلى الصومعة، ومن هناك يدخل في كيس، ويغلقه على نفسه، ويأمر الناس برجمه بالحجارة، وفي بعض الأحيان يجرد نفسه من ثيابه وملابسه، ويتدحرج

⁷⁴ اليهود في البلدان الإسلامية ص 228.

⁷⁵ المرجع السابق ص 229.

⁷⁶ جيل كييل: يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث ص 169-170.

⁷⁷ المرجع السابق ص 174.

⁷⁸ أبستاين: اليهودية عرض تاريخي ص 297.

⁷⁹ المرجع السابق ص 209.

⁸⁰ Neusner, Jacob; *The Way of Torah* (California, Belmont, 1979) P.187.

على الأشواك، وهو عار حتى يحترق جسده تورما، ومن ثم يعلن للناس أن هذا هو الطريق الصحيح للتوبة، ويجب على كل واحد أن يتبع خطوته"⁸¹.

ومن هذه الحركات أيضا حركة غوش إيمونيم أي كتلة الإيمان أو كتلة المؤمنين، وهي حركة سياسية دينية، ولدت غداة حرب تشرين الأول أكتوبر العربية الإسرائيلية، التي انتهت بهزيمة نفسانية للدولة العبرية⁸².

ومنها حركة اللوبافيتش *Lubavitch* وهي حركة دينية ذات نوازع صوفية، أسس بنيانها الفكري في نهايات القرن الثامن عشر، وبدايات القرن التاسع عشر الراباي زلمان الليادي *Shneur Zalman of Liadi*، وبعد وفاته قادها ابنه الراباي دوف بير *Dov Baer* ويعد الراباي أهاران هاليفي ستروسلييه *Aharan Halevi of Stroselye* أهم أتباع الراباي زلمان *Zalman* حيث طور تعاليم أستاذه في مجموعة من الكتب⁸³.

ومن تلامذة هذه المدرسة أعني المدرسة الحاسيدية اللوبافيتشية في نيويورك، منحيم شنير سونس، وله أتباع في مدينة القدس⁸⁴. ففي سنة (1972م) أنشأ اثنتين وسبعين مؤسسة توراتية جديدة... وفي عام (1980م) شن حملة تطالب الأطفال بإرجاع آبائهم إلى سبيل اليهودية تطبيقا للآية التي تقول " هو الذي أرجع قلب الآباء للأبناء" وأدان ضبط النسل وتحديده مستندا إلى الآية "تكاثروا تزايدوا"⁸⁵.

وثمة عودة على صعيد الأفراد من اليهود، ومن هؤلاء (هرمن برانوفر) حيث كان ملحدا ماديا، أحد القمم العالية في ميدان مغناطيس الدينامية المائية البالغ التعقيد، لكنه عاد وكتب كتابا بالروسية عنوانه (عودة إلى اليهودية) (1976م)، ثم صدر الكتاب بالإنجليزية بعد ذلك بست سنوات، يقول هرمن بعد أن مر بأطوار مختلفة في حياته: " فقد بدأ يتضح لي أن ثمة فارقا بين العلم الذي لا يعالج سوى علاقات التفاعل بين الظاهرات، والدين الذي يكشف جوهر الأشياء وموضوعها"⁸⁶. ومن العائدين إلى الإيمان الديني في اليهودية (شيمون هورفيتز الأمريكي)، ففي عام (1978م) ألف كتابا بعنوان (الوجود اليهودي)، حيث يقول: " الثقافة اليهودية الأصيلة من جهة، والمجتمع والثقافة الغربيتين من جهة أخرى يتعارضون تعارضا كاملا، وتتصف هذه الأخيرة أي الثقافة الغربية بخواء وعبثية كاملين، ويكون هدفها الوحيد هو إشباع رغبات الفرد داخل سياق من المادية التي لا حدود لها، وهكذا فإن اليهودي المندمج المنصره الجاهل بالله، ترك لحربة اختياره وسط لا مبالاة أخلاقية كاملة، وحده اكتشاف التوراة، والتفكير بأحكام الشرع سيتيح له أن يعطي حياته معنى"⁸⁷. ومنهم (مئير شلر) حيث ينتمي الرجل إلى أسرة لا تتقيد بالشرعية اليهودية، ونجد من بين

⁸¹ Dan, Joseph; *Jewish Mysticism and Jewish Ethics* (London, Jason Arason.INC, Northvale, New Jersey, 1996) P.90.

⁸² جيل كييل: يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث ص155.

⁸³ Dan, Joseph; *Jewish Mysticism and Jewish Ethics*.P.129.

⁸⁴ فيلررد مراد هوفمان: الإسلام هو البديل، ترجمة: محمد مصطفى مازح (بيروت، ط1، 1413هـ، 1993م) ص111. وقد وصف هوفمان الرجل بأنه يمثل الأصولية اليهودية.

⁸⁵ جيل كييل: يوم الله، الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث ص199.

⁸⁶ المرجع السابق ص161.

⁸⁷ المرجع السابق ص158.

آبائه وأجداده اشتراكيين ولأدريين وملاحدة، ألف في عام (1978م) كتابا أسماه – وهو العام الذي ألف فيه شيمون كتابه- طريق العودة، حيث وصف الحقبة الحديثة بعصر تفكك القواعد والأخلاق، وقد أرجع ذلك كله إلى عصر التنوير، حيث قال: "أحرق الإنسان سفن عالمه المتمحور على الله وراءه، وانجر في تيار الأيدولوجية العلمانية الدنيوية انجرارا لا رجعة بعده، قاده إلى غياهب بحر الريبة، حيث لا يزال يضرب على وجهه بدون غاية"⁸⁸.

يهود الشرق وتحديات الحداثة الغربية

هذه الصراعات والنزاعات بين التيارات اليهودية الحديثة تغلغت في صفوف اليهود في الشرق، ولكن خلافاتهم كانت أقل حدة في البلدان المسلمة مقارنة بالغرب المسيحي، والحركات التنويرية والإصلاحية بشتى ضروبها لم تظهر إلا في الغرب، ثم انتقلت إلى العالم الشرقي، ودعنا نذكر أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الصراعات بين يهود الشرق:

(1) تأثر يهود الشرق بيهود الغرب الذين تتقفوا بثقافة الغرب المسيحي في المدارس الحديثة.

(2) عودة بعض المستنيرين إلى أحضان اليهودية الأصولية حاملين معهم بقايا نزعات الفكر الغربي، ونزعات العصر التنويري التي لم يتخلوا عنها كاملا، فهذه التراكمات أثرت في بعض أدبيات التصور اليهودي.

(3) ظهور الحركة العمالية اليهودية التي أسسها جماعة من الشباب اليهودي المستنير الذي تزعمهم أفراهام بن أوريه حيث تبنى الفكر الاشتراكي، وقد كان مدرسا بإحدى المدارس اليهودية في بلغاريا⁸⁹. ويعد الحاخام يهودا نحما (1899م) إحدى حلقات الوصل التي تم من خلالها انتقال الثقافة الغربية إلى يهود تركيا وسالونيكيا، وذلك لقوة اتصالاته بقيادة التنوير اليهودي في أوربا... ولذلك أطلق عليه مندلسوهن تركيا، نسبة إلى الفيلسوف اليهودي موسى مندلسوهن، رائد حركة التنوير اليهودية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر⁹⁰.

(4) ظهور جماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء التي تأسست في باريس سنة (1860م)، وقد كان لهذه الجماعة تأثير حتى على يهود كردستان، وقد كانت الطائفة اليهودية في الموصل هي أكبر طائفة في كردستان، وكان لسكانها من اليهود اتصالات عديدة بالعالم الخارجي، وبعد وفاة الحاخام بارزاني تولى هذا المنصب الحاخام إياهو صايغ الذي تلقى تعليمه في القسطنطينية ويوغسلافيا، والذي أجاد العديد من اللغات الأوربية والشرقية، وسعى هذا الحاخام إلى تطوير التعليم اليهودي،

⁸⁸ المرجع السابق ص158.

⁸⁹ اليهود في البلدان الإسلامية ص221.

⁹⁰ المرجع السابق ص235.

والارتقاء بمستواه، واستعان بجماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء، وبفئة الأثرياء والمستنيرين من اليهود التي ظهرت في مدينة الموصل⁹¹.
بمرور الزمن بلغت هذه الصراعات أوجها في العالم الإسلامي، ففي مصر في نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، بدأ الأديب والمؤرخ اليهودي أفراهام جالانتي بإصدار صحيفة أسماها (العصا) ... حيث اتهم الحاخامات بأنهم أعداء التقدم، وقد قال في إحدى مقالاته لكبير حاخامات القسطنطينية (موشيه هاليفي)(1908م) مخاطبا إياه: " يجب أن تترك منصبك، وأن تذهب إلى القدس لتموت هناك"⁹².

ثالثا) الإسلام

أما في الإسلام، فقد تعرض هو الآخر لموجات الحداثة الغربية، وما تحملها من أفكار وتصورات وأيدولوجيات مختلفة، يقول خير الدين التونسي(1889م): " إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصله قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا حذوا حذوه، وجرروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق"⁹³.
وتجاه هذه التحديات الخطيرة ظهرت التيارات المتباينة، والاتجاهات المختلفة، وكأن ظهور مثل هذه التيارات المتنوعة فكريا معادلة لا تقبل التغيير، وسبب ذلك أنه لا يمكن اتخاذ موقف آخر سواه، فهو إما قبول مطلق غير مشروط، أو رفض كامل، أو حل وسط يجمع بين الرأيين المتعاندتين، فالقبول المطلق يمثله التيار التغريبي، وهو الانصهار الشامل غير المشروط في بوتقة التغريب والحداثة وكل ما له صلة بالغرب، *Comprehensive Unconditional Assimilation*، وأول من دعا إلى هذا الاتجاه هم مسيحيو العرب في سوريا ولبنان، أمثال بطرس البستاني وناصر اليازجي وفارس الشدياق ونجيب حداد وفرح أنطون وشبلي شميل وسلامة موسى وغيرهم خلق كثير، فهؤلاء بحكم انتمائهم الديني، دعوا إلى نشر الثقافة الغربية، والقطيعة مع التراث الإسلامي، لكونه السبب الرئيس في تخلف البلاد، وتقهره وعدم مواكبته تطور الحياة الرغيدة، وقد شاركهم بعض المسلمين في مساندة هذا الاتجاه، أمثال إسماعيل مظهر والدكتور طه حسين وعبد الرحمن بدوي وجلال أمين. يقول إسماعيل مظهر: " ففي الشرق علم، وفي الغرب علم، ولكن في الشرق علما قام على الأساطير والخرافات، وفي الغرب علما قام على الاختبار والمشاهدة"⁹⁴. وقد كان يدعو إلى الوضعية العلمية التي مر الحديث عنها سابقا، وهو الذي ترجم كتاب دارون (أصل الأنواع) سنة(1919م)، وأصدر مجلة (العصور) (1927م) للذود عن

⁹¹ المرجع السابق ص 100-101.

⁹² اليهود في البلدان الإسلامية ص 255.

⁹³ فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث(الأردن، دار الشروق، د.ط. 1988م) ص393.

⁹⁴ أحمد جاد عبد الرزاق: فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي(الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2426هـ، 1995م) 612/2.

تلك النظريات والأفكار، وقد كانت المجلة منبرا لها، قال في وصف الكتاب المترجم: إن لمذهب النشوء والارتقاء من الأثر في فروع العلوم الحديثة، ما يجعلني أعتقد بأن هذا المذهب جدير بأن يقف الإنسان أكبر شطر حياته وجهوده في سبيل درسه ونقله إلى العربية"⁹⁵.

أما الدكتور طه حسين⁹⁶، فقد كان متأثرا بالغرب إلى درجة الانبهار، وبدا تأثره الشديد بالشك الديكارتي، ومنهج نقد النصوص الدينية، وانطلق من الشعر الجاهلي، لنقد القرآن الكريم، وخاصة التشكيك في القصص القرآنية، حيث يقول: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورد هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة فيها"⁹⁷.

ثم بدأ طه حسين بإرشاد أمته أبناء مصر العريقة إلى التخلق بأخلاق الغرب، لأن الطريقة المثلى: "هي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع"⁹⁸، وقد أشار ابن خلدون (ت799هـ) إلى هذه الظاهرة النفسية، وهي ولع المغلوب بالغالب، بقوله: "مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"⁹⁹.

أما التيار الآخر فهو التيار التقليدي، الذي يرفض كل محاولة للتجديد والإصلاح في مجالات الفكر والفقهاء، ويرى نفسه الحامي والحارس للدين ضد أعداءه، وهذا التيار تحول بمرور الزمن إلى حركات تكفيرية وإرهابية، تحاول فرض عقيدتها على الآخرين بقوة وعنف، ولسنا بحاجة إلى الحديث عنها، لكونها بحاجة إلى دراسة مستقلة، وهي حركات معروفة قديما وحديثا¹⁰⁰.

أما التيار الوسط الذي حاول الجمع بينهما، فهو التيار التجديدي التحديثي، وقد مثله علماء أجراء في الفكر الإسلامي، خذ مثلا: محمد عبده (1905م)، ومحمد رشيد رضا (1935م)، وسعيد النورسي (1960م) ومحمد الطاهر بن عاشور (1973م) ومالك بن بني (1973م) وغيرهم خلق كثير، وتتخلص دعوة هذا التيار في الدعوة

⁹⁵ أحمد جاد عبد الرزاق: فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي 614/2.

⁹⁶ ولد الدكتور طه حسين في مصر (1889م)، فقد بصره في الثالثة من عمره بعد إصابته بمرض الجدري، حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر، ونال الدكتوراه سنة (1914م)، ونال دكتوراه ثانية في فرنسا، وتزوج فتاة فرنسية، توفي عام (1973م).

⁹⁷ طه حسين: في الشعر الجاهلي (د.م. دار النهر، ط3، 1996م) ص65.

⁹⁸ طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر (د.م. مطبعة المعارف، 1944م) ص38.

⁹⁹ ابن خلدون: المقدمة (بيروت، دار القلم، ط5، 1984م) 612/1.

¹⁰⁰ تناولت هذا التيار ومشتقاته في كتابي (ظاهرة الإرهاب الديني) بتفصيل، والكتاب ألفته باللغة الكردية (مطبعة آراس، 2009م). لذا لن أتطرق إلى هذه المسألة، لأنني أكره التكرار.

إلى عدم القطيعة مع التراث الإسلامي، والاستفادة من التمدن الغربي من الناحية المادية والعمرانية والتكنولوجية، وهذا مما لا غضاضة فيه شرعا.

أما بخصوص العودة إلى الإيمان الديني في الإسلام، فنجد ذلك على صعيد الأفراد والشخصيات المعروفة من التيار التغريبي، الذين أثروا العودة إلى الإيمان الديني، بعد أن قضاوا حقبة كافية في التلهف وراء الغرب، فكرا وعقيدة وتصورا ومذهبا، أو بعبارة أخرى قلبا وقالبا، ظاهرا وباطنا، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين، وقد تحدثنا عنه في السطور السابقة، وكيف كان موقفه الإيجابي من الغرب، وكيف أنه دعا أبناء مصر إلى الاقتفاء بالنموذج الغربي مطلقا، حيث هنا نجده يؤلف في أواخر حياته رسالة بعنوان (مرآة الإسلام)، حيث تختلف شخصية طه حسين في هذه الرسالة، إلى درجة أن يشك الإنسان في صحة نسبتها إليه، ولا ريب أن ثمة أسبابا موضوعية دفعت به إلى هذا الاتجاه، لعل من أهمها الاستعمار الغربي الذي أساء كثيرا بحق العالم العربي والإسلامي، وتعامل معها معاملة سيئة وجبروتية ومهينة، لذلك قال طه حسين: " والمستعمرون في هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروبا من العلم، قد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتما بينهم وبين تاريخهم، وتفنيهم في الأمم السابقة إفاء"¹⁰¹. ثم بدأ بنصيحة أبناء المسلمين بقوله: " وسبيلهم اليقظة الخصبة واحدة لا ثالث لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم يذكرونه، بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه جد الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه، وتيسيره لغير المتخصصين، هذه واحدة، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث"¹⁰².

ومنهم أيضا الدكتور عبد الرحمن بدوي¹⁰³، فيسلف عربي، من دعاة الفلسفة الوجودية، *Existentialism* تأثر جدا بالفيلسوف الألماني مارتن هيدجر (1976م) *Martin Heidegger*، وكذلك سورين كيركيغورد (1855م) *Kierkegaard Soren Aabye* حيث نجده يدعو إليها في كثير من كتبه ومؤلفاته ورسائله، من مؤلفاته (الزمان الوجودي، هل يمكن قيام أخلاق وجودية، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي). ولهذا يرى بدوي أن الوجودية هي الطريق الأمثل للإنسانية، حيث يقول: " ولهذا فإن تطور الإنسانية يسير في اتجاه الوجودية حتى لنستطيع أن نقول إنها ستظل لأجيال وأجيال متطاولة أصدق تعبير عن هذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطورها على مر الزمان اللانهائي"¹⁰⁴.

لقد أمضى بدوي ستين عاما من عمره مغتربا عن الإسلام، وقد خدم الفكر الغربي خدمة عظيمة، ولكنه بعد هذا السفر الطويل والشاق عاد إلى رشده الديني،

¹⁰¹ طه حسين: مرآة الإسلام (د.م.ب.ط6، دار المعارف) ص264.

¹⁰² المرجع السابق ص265.

¹⁰³ ولد الدكتور عبد الرحمن بدوي في مصر، مفكر عربي ممتاز، ترجم لنفسه كفيلسوف عربي وجودي في موسوعته الفلسفية، عاش في فرنسا، وتجنس بالجنسية الفرنسية، قدم الرجل تراثا ضخما فكرا وترجمة، يتقن اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والفرنسية واللاتينية والإيطالية، ترجم العديد من الكتب، توفي سنة (2002م).

¹⁰⁴ عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1966م) ص14-15.

وأعلن ندمه على ما فات من عمره، ولقد أجرى الأستاذ صلاح حسن رشيد لقاء مهمما معه في مجلة الحرس الوطني، لذا سأنقل مقتطفات مهمة منه، ومن أراد الإستزادة فليراجع اللقاء الكامل¹⁰⁵.

السائل: ماذا تود أن تقول، وأنت على فراش المرض؟.

الجواب: لا أستطيع أن أعبر عما بداخلي من إحساس الندم الشديد، لأنني عانيت الإسلام والتراث العربي لأكثر من نصف قرن، أشعر الآن أنني بحاجة إلى من يغسلني بالماء الصافي الرقيق، لكي أعود من جديد مسلما حقا، إنني تبت إلى الله، وندمت على ما فعلت.

السائل: هل تيرأت من كتاباتك السابقة عن الوجودية والزمن الوجودي، وعن كونك رائد الوجودية في الوطن العربي؟

الجواب: نعم، أي عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة، ولهذا فأنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل، من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الأدب الملتزم بالحق والخير والجمال، فأنا الآن هضمت تراثنا الإسلامي قراءة وتدوقا وتحليلا وشرحا، وبدا لي أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد، كما أنني قرأت الأدب والفلسفات الغربية في لغاتها الأم مثل الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والإيطالية، وأستطيع القول أن العقل الأوربي لم ينتج شيئا يستحق الإشادة والحفاوة مثلما فعل العقل العربي، وتبين لي الغي من الرشاد، والحق من الضلال.

السائل: ما رأيك في الحداثة؟

الجواب: الحداثة ماتت في الغرب في السبعينات، لكننا أحييناها على ترابنا، وفي جامعاتنا ومعاهدنا، وفي منتدياتنا الفكرية والثقافية والأدبية، وعادينا من أجلها تراثنا العظيم، وشعرنا العمودي، وفكرنا القويم، وخضنا بسببها حروبا طاحنة، واشتباكات فكرية لا طائل من ورائها.

السائل: وماذا تتمنى في هذه اللحظة؟

الجواب: أتمنى أن يمد الله في عمري لأخدم الإسلام، وأرد عنه كيد الكائدين، وحقد الحاقدين.

وقد استجاب الله دعوته، فألف كتابين عظيمين باللغة الفرنسية دفاعا عن القرآن الكريم ودفاعا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضد المنتقصين من قدرهما.

ومن العائدين إلى الإيمان الديني الدكتور جلال أمين¹⁰⁶، من أشد المدافعين عن الوضعية المنطقية *Logical Positivism* حيث يقول: "كنت أتفق مع الوضعية

¹⁰⁵ <http://www.elthwed.com/vb/showthread.php>.

¹⁰⁶ جلال أمين أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، مصري الجنسية، قضى ست سنوات في بريطانيا لإكمال الدراسات العليا.

المنطقية، بل مؤيدا ومتحمسا لها، في قلة صبرها على المقولات الغامضة وغير المحددة تحديدا دقيقا، إذ لم أكن مترددا في وصفها، بأنها كلام فارغ خال من المعنى". وهو يقصد هنا بلا ريب الميتافيزيقا *Metaphysic*، والتي سماها أخذهم بالخرافة¹⁰⁷.

ثم تحدث عن الحياة الغربية، أثناء زيارته لأوروبا، في كونها تغطي عليها النزعة الاستهلاكية لأشباع الرغبات، حيث قال: "وكأنني خلعت نظارة ملونة كانت أمام عيني، وكانت تلون كل شيء بلون معين، وكنت أظن أن هذا اللون في الأشياء نفسها، فإذا بي أكتشف أن اللون في النظارة، وإذا بي وقد خلعتها، أرى كل شيء بلونه الحقيقي". ولقد ذكر جلال أمين مثالا قيما يصور حقيقة الحضارة الغربية، واكتشافاتها العلمية المنكرة للميتافيزيقيا، وكيف أنه في البداية خدع بها، وغره سحرها، حيث يقول: "لعل هذا الاكتشاف كان شبيها بالتغير الذي يلحق رجلا كان يعشق امرأة معينة عشقا، ويعتبرها أجمل المخلوقات طرا، ثم لسبب ما يموت الحب، فإذا بهذه المرأة في عينه لا تزال جميلة، ولكنها ليست بالجمال نفسه، ويبدأ في ملاحظة أشياء فيها لم يكن يلاحظها، بل لم يكن يراها أصلا". ثم جاء وأكد أهمية الميتافيزيقيا في حياة الأمم والشعوب لنهضتها: "ومن المستحيل أن نتصور أمة تنهض إذا تخلت عن ميتافيزيقاها، وأن أسوأ ما يصيب أمة تخليها عن ميتافيزيقاها، وتبنيها لميتافيزيقيا الغير... هكذا أدركت ضرورة تمسكنا بميتافيزيقانا من أجل إحراز النهضة، وضرورة التزامنا بها واحترامنا لها، وثقتنا بها، كما يتمسك المرء بأمة ويصونها ويدافع عنها، ولا يكاد يكون هناك شيء أسوأ من خيانة فرد لميتافيزيقا أمته إلا خيانة المرء لأمة"¹⁰⁸.

¹⁰⁷ وهو زكي نجيب محمود حيث سمى كتابا له بهذا العنوان خرافة الميتافيزيقا.
¹⁰⁸ مجلة العربي (الكويت، وزارة الإعلام، العدد 494، 1420هـ، 2000م) جلال أمين: العلم والميتافيزيقا والنهضة ص 108-113.

الخاتمة

إن إزاحة الدين عن مسار الحياة، وانتزاع سلطانه الروحي من القلب، محاولة مهما كانت قوية عنيدة فهي غير ناجحة ابتداءً، وقد دلت الوقائع التاريخية على ذلك، فمع أن المسيحية (الكاثوليكية) هي التي بدأت أولاً بصناعة هذا الصراع بين الدين والنزعة العلمية، وهي التي تتحمل المسؤولية بالدرجة الأولى، بخلاف اليهودية والإسلام، لكونهما تعرضا لموجة ذلك الصراع بعد أن أذاقت المسيحية أتباع النزعة العلمية سوء العذاب، فأصبحت المسيحية رمزا للإرهاب والتعسف والعنف والظلم في تصورهم، مما أصبح جلياً في اعتقادهم أن كل دين بطبيعته يحمل تلك الخصائص نفسها، وعليه، فإن الدين في تصورهم عائق وعقبة في طريق تقدم وتطور التجارب والعلوم والمعرفة، وقد اتهموا الدين بشتى التهم، منها، أن الدين أفيون الشعوب، وأنه مرحلة من مراحل التطور الإنساني، يمكن تجاوزها إلى مرحلة أرقى منها للبشرية، وأنه خرافة، وأنه تخلف وتقهقر، وهي اتهامات كانت في بداية أمرها للمسيحية، لكنها شملت جميع الأديان لأصولها المشتركة، ولكونها جاءت من عالم الغيب الذي لا حقيقة له، لأن الميتافيزيقا في فلسفة القوم خرافة وكذب، فما لم يكن مبنياً على التجارب لا يمكن التحقق من صدقها.

ولقد سببت تلك العداوة للدين في ظهور حركات أصولية غاية فلسفتها العودة الصارمة للدين، والتمسك بأهداب نصوصه من غير تأويل، ورفض كل محاولة إصلاحية، أيا كان صاحبها، لكونها ردة فكرية، لا يمكن التسامح معها.

والعودة إلى الإيمان الديني تمرد واضح على الحداثة، وما أفرزتها من أيديولوجيات وأفكار معادية للدين، لأن التدين نزعة متجذرة في الإنسان، يستعصي اجتناث فتيله في النفوس كما أوضح ذلك شلاير ماخر الألماني *Schleicher Macher*. وأصدق تعبير لهذه التجربة ما قاله بلوتارخ مورالس *Plutarch Morals*: "قد نجد مدناً بلا أسوار أو بدون ملوك أو حضارة أو مسرح، ولكن لم ير الإنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعباد"¹⁰⁹.

والعودة إلى الإيمان الديني ظاهرة عالمية ألفينا نماذج منها في الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) على الصعيدين الجماعي والفردى، وهي حقيقة تثبت انهيار تلك التحديات التي أفرزتها الحداثة الغربية ردحا من الزمن، والتي لم تستطع أن تقاوم سلطان الدين وقوته الروحية المتدفقة.

وهذه العودة اتخذت أشكالاً وصوراً متباينة، بعضها ركز على الجانب الروحي والفكري (أي جعلها في إطار الشخصية والفردانية)، فهي عودة إلى

¹⁰⁹ علي عزت بيغوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص 60.

التصوف بالمعنى التطبيقي للكلمة، وأقرب مثال لذلك التجارب الصوفية في الإسلام، وما تجربة أبي حامد الغزالي (ت505هـ) منا ببعيد، فإن تحوله وتحواله العلمي والمعرفي والفكري دليل على صدق ما نحن بصدده، فقد بدأ بالفقه وأصوله، ثم انتقل إلى علم الكلام، ثم بمقاصد الفلسفة، والرد عليها في تهافته، واستقر في نهاية المطاف على التصوف كما تحدث هو عن نفسه في كتابه (المنقذ من الضلال)، وفي العصر الحديث تطرقنا إلى بعض المفكرين أمثال (طه حسين وعبد الرحمن بدوي وجملا أمين وغيرهم كثير)، هذا الاتجاه سليم، لكونه تجربة شخصية فردانية روحية شفافة لا يحاول صاحبها فرضها على غيره، ولا تصديرها إلى الآخرين، بل هي بنفسها ستؤثر في الآخرين، من غير محاولة، وستنتقل بطبيعتها إلى الآخرين من غير تصدير ولا فرض ولا قوة ولا إرهاب ولا إكراه.

أما الاتجاه الآخر، فقد تجاوز طور التجربة الشخصية إلى ثورة بركانية تحاول فرض عقيدتها، وتصديرها إلى الآخرين مهما كلف الأمر، ولعل الحركات التكفيرية خير من يمثل هذا الاتجاه، لذلك لا نجد من بين أتباعه من يقبل الحوار والجدال، أما الإصلاح والتجديد فردة يستحق صاحبها الذبح، وهي أشبه بالخوارج السابقين، وهذه الحركات لها أنصارها وأشياعها في الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام).